القاهرة

تأليف

ديزموند ستيوارت

ترجمة

يحيى حقي

تقديم

د. جمال حمدان

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

هذا الكتاب

لم يستـطع معـول التنـظيم الغشـوم، ولا أكـداس العمـارات الشاهقـة المسلحـة بـالأسمنت، ولا غـوائـل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت، ولا أحياء حجارة الـدومينو تنبت كـالفطر وتتضخم كـالسرطـان، شقًا إلى القلب كالطعنة النجلاء أو لفًا على الجوانب، غلافًـا فوق غلاف، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها عـلى الرأس يد عمياء متلهفة على التقليـد - لم يستطع شيء من هـذا كله أن يمس طابعها الأصيـل وجلالهـا المكنون - هبـة لها من حضارة الشرق، ونفحة من سماته، كلاهما خارج عن متنـاول الزمن وعـواديه، إن كنت تـأنس لجمـالهـا حـين يطوف به خيالك إذ هـو بالأمس فى قصـره، فى عز مجـده فـإنك أشـد أنسًا بـه وأنت تزوره اليـوم فتراه منكمشًـا

منزويًا فى صومعته. بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة فى نواتها الصلبة، هيهات أن تتحطم، إنها صلابة الدفاع المستميت فى آخر خندق، وهذا التجمل بالستر إذ الود فاتر ومنسى أشد نبلاً من أريحيتها وإغداقها إذ هى مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة..

لم تستطع الأسطح المتعالية يومًا بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة، باقية هى ناجية بشممها وشموخها، ولا الضجة الهائلة التى اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن، يخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل فجر..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية فى فن العمارة، فى ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال، تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة عملوا فى ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد، ولا يذكرهم أحد، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم، جزاؤهم عند رب لهم عليم..

وأسواق لا تزال متشبثة بأمكنتها، كأن لها جذورًا

ضاربة إلى الأعماق، هيهات أن تنقصف أو تذوى، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها. تغير عن يمين، عن يسار، من حول كائن واحد لا يتغير، ابن البلد، بكرمه ومروءته، بلطفه وظرفه، ببشاشته وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بذكائه وحضور بديهته، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثراها بأبدع مجاز واستعارة، ساخر وحكيم، تحسبه لطيبته غرًّا ولكنه «حويط»، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوخة من بين عمله كثيرة زائفة ولو براقة، لا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح..

هذه هى القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها، إذن ستحبها، ستعشقها، ستنضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين، هاموا بها ولاء والتحامًا، منذ أن ألقى فى نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة فى منديل، عشق بالغريزة، بالإرث، بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه..

لم أعرف عيدًا قوميًّا تمثل لى فيه لقاء موعود مع

حبيب كالعيد الألفى للقاهرة، بلدى الذى ولدت فيه، ونشأت فى أحيائه العتيقة الشعبية، تحس أعصابى قبل عقلى بمقدم العيد، وددت أن أشارك أهلى فى الاحتفال به فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتابًا إن صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال - بقدر علمى - من أحدث الكتب التى ألفت عن القاهرة. كتبه ديزموند ستيوارت الذى يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل بها وأقام بيننا طويلاً، وله فى بلده إنتاج أدبى، متعدد متنوع. اخترت كتابه لأنه صغير الحجم، ململوم، فصوله محددة أجمل تحديد، موصولة ببراعة، أرجو أن تلحظ كيف كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوى لأنها - بل الوادى كله - فى حضن الصحراء، ثم من ناحية طابعها النهرى، ثم يمضى يساير التاريخ فى فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق..

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبى، مقصود به خدمة زائر أجنبى يقدم إلى بلادنا لأول مرة، فالحديث له لا للمصريين. لا تضق ذرعًا إذن بمعلومات

وردت بـه هى غير مجهـولة لـك، بل لعلك تجـد متعـة فى مقارنة دلالتها عندك بـدلالتها عنـد المؤلف، لذلـك فإنـه يرسم لهذا الزائر طريقه إلى المساجد والكنـائس، ويقيس له زمن المشوار مشيًا بالساعة والدقيقة، ويحـدد له أسعـار فنجـان القهوة وقـطار حلوان ودخول المتـاحف، ولكنـه يقتصد فى هذه الإرشادات العملية ويتخـذ طريقًـا وسطًا، فـلا يتسم بهذا الجفـاف العلمى الـذى تجـده فى مؤلفـات فقهاء الآثار، ووقـوفهم الطويـل أمام الأحجـار والعقود والمقرنصات، (وضع الأجانب مصطلحات العمـارة ونحن لا نـزال فى حيرة لا نستقـر على مصـطلح نستخدمـه فى التأليف أو الترجمـة) ولا يتسم الكتاب كـذلك بـالجفاف التجـارى الذى تجـده فى كتب دلالة السيـاح، ولم يقصـد المؤلف أن يقـدم لنا فى صـورة مختصرة معلومـات كثيـرة استقاها من المـراجع، وإنمـا أراد أن يحكى بأسلوب أدبى للزائر الأجنبى (وقد افترض فيه هيـامه بـالفن وجوانب الـطرافة فى الحى والجمـاد) ما أحس بـه هو ذاتـه داخل نفسه وهو يجوب أحياء القـاهرة يعـرض أحاسيسـه على لوحة من الحقائق التاريخيـة التى استمدهـا من مراجعهـا

الوثيقة، إنه رأى الألوان وأطياف الألوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والأسطح والجدران وأكوام القمامة، كم كنت أود أن يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الأجنبى، إنك لا تملك إلا أن تحس أنه يحب القاهرة حبًّا كبيرًا، ولكن بقيت مع ذلك فى نفسى من الكتاب أشياء تململت لها، أبقيتها ليكون النص العربى مطابقًا للنص الانجليزى تمام المطابقة، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم منى بالتاريخ، ودعنى أعترف لك أننى ما تناولت كتابًا لأجنبى يصف فيه بلدى فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف إلى السر من تحت السطح إلا تملكنى شىء من الحسرة والغيرة، قد يصدنى أحيانًا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسى على خيابتى وقصور بصرى، وهذه هى حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته فى النهوض صادقة، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس بفهم بلدى وخدمته، لن أتخوف - شأنى مع الأجانب -

شبهـة التجنى عن سوء فهم، أحيـانًا عن سـوء قصد، ثم أعود للكتاب وأنا أقول إن الأجنبى أقـدر من ابن البلد على الرؤية لأنه ليس مثله ضحية الألفة المستنـزفة لجـدة الانتباه والعجب، المفضية إلى عناق تموت فيه اللهفة وإن بقى الحب، وأشهد أن ديزموند ستيورات أرانى لأول مرة أشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها..

ونحن الآن نحتفل بالعيـد الألفى للقاهـرة، الأم التي نحلف بجمـالها وننعم بحضنهـا. سنقرأ ولا ريب أعمـالاً بـديعة تتحـدث عن التاريـخ والآثار والعمـارة والخـطط وتـراجم الأعيـان، ولكن الـذى أبحث عنـه هـو كتـاب يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته، حـديث إنسان حى عن إنسان حى ينفرد بملامح ثابتة وإن تقلبت ثيابه. لن يخط هـذا الكتاب قلم مؤرخ أو عـالم آثار، بـل قلم أديب ابن بلد، أو قـل قلم شـاعـر كتب بـالنـثر، والعجيب أننى وجدت ضالتى لا عند أديب أو شاعـر بل عند صديقى الأستاذ عبدالفتاح عيد، نابغة فن التصـوير الفوتوغـرافى فى بلدنا، فـإن لوحـاته عن القـاهرة شعـر

ونغم، وحس مرهف، وفيض حب كامن فى أعماق القلب. وكم كنت أتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض على حبها، أتمنى أن تنظم لنَا جولات صباحية أيام العطلة مشيًا على الأقدام، بالمجان، فى صحبة عالم آثار لا دليل سياح، يشرح ويفسر. جهود أخرى للمناداة بصيانة الآثار الإسلامية فى ذاتها وفى نوع الجيرة من حولها، وإثارة الاهتمام بفن العمارة، فمن العار أن لا تصدر مجلة للعمارة فى القاهرة أم العمارة، والمطلب من هذا كله هو حث المعماريين عندنا على الوصول إلى طراز يلائم طبعنا وجونا، ويستمد من تراثنا، فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا، نذل بها وتذل هى بالغربة عن مواطنها، لا تنفعنا كما نفعت أهلها، فالشقاء مزدوج متبادل..

يحى حقى

مقدمة

القاهرة الكبرى
دراسة فى جغرافية المدن

بقلم: د. جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم، فالقـاهرة واردة بالتأكيـد فى العشرة الأولى أو العشـرة ونيف. وهى المـدينة الأولى - المـطلقة - فى قـطاع هائـل متصـل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحـة ويتعدى آفـاق القارة الأفـريقية إلى تخـوم الألب ووسط آسيا. بـل إن بضعـة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانًا - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيرًا أو قليلاً، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف

سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة!

وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا، فلعل القاهرة (وأسلافها أو بأسلافها) هي أم المدن جميعًا، وعلى أية حال فقليلة جدًّا هى المدن التى يمكن - كدمشق - أن تنافسها فى هذه الصدارة. وحتى نتمثل هذا البعد الزمانى السحيق بشىء من التجسيد الذهنى، يكفى أن نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة..

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والإشعاع القومي والفكرى، فما من عاصمة فيما نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية وسيطرة أو توجيه، بل وإلى حد الإفراط ربما. ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم: هل العواصم هى أكبر وخير مايمثل ويجسم روح بلدها وكيانه، وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من

جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دائمًا إلى الخارج تؤلف بينهـا طبقة «كـاستية» خـاصة من المـدن فى العالم أشبـه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية؟ مهما اختلف الرد، فلا خوف فى حالة القاهـرة، ولا يمكن له أن يقـوم، فهاهنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيـانه حضـاريًا ومـاديًا، جغـرافيًا وتـاريخيًا، ربمـا كما لا تفعل عاصمة أخرى.

هذه إذن هى القاهـرة: تاريـخ مفعم مجمد أو محفـوظ كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه، كل شـبر منها يحمـل بصمـات الإنسـان. إنها - كبيت جمـاعى كبـير، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها فى مصر - عمـل فنى من مقياس ضخم مهندسـه وساكنـه هو المصـرى، وهى بهذا أكثر أو أكثف رقعة من الـلاندسكيب الحضـارى فى مصر «تبشيرًا» وحملًا للطابع البشرى، وبنفس الدرجة أبعـدها عن ملامح الطبيعة الخام واللانـدسكيب الطبيعى الغفـل للوادى..

ورغم هـذا كله، فـإن القـاهـرة من أسف من أقـل

العواصم حظًّا فى دراسات المدن العلميـة الحديثـة. كثيرة هى لا شك الكتابات الأكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عمومًا أو تـاريخ العمـران أو الآثار خصـوصًا. وربمـا أضفنا بعض كتـابـات «هـواة المـدن» من الـرحـالـة أو الأدبـاء أو الصحفيين، لاسيما منهم الأجانب.

أمـا دراسة المـدينة ككـل حى متعضـون فـوّار محـدد السمـات والقسمات، كمجتمـع مركب متـلاطم مضـطرم يضطرب فى وعاء جغرافى واضح المعـالم بارز التضـاريس، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغـرافية المـدن بوجـه خـاص، أما مـورفولـوجية القـاهرة الكبـرى، تركيبهـا الوظيفى، أيكولوجيتها البشرية، نموها السكـانى وزحفها العمرانى وضوابطه، هيدرولوجية النقل ومشاكله الخـانقة المختنقة، الطبـوغرافيـا الاجتماعيـة والتوزيـع الجغرافى للطبقـات والحـرف، إقليم المـدينـة وحـدوده، التخـطيط المستقبلى ومؤشراتـه.. الخ، أمـا هذا كله فمـازال فراغًـا مقلقًا وأرضًا بكـرًا (ولا نقول مجهـولة) منـذ ظهرت أول

وآخر محاولة جادة فى هذا الميدان الضخم، ونعنى بها دراسة كليرجية[1] فى الثلاثينات، والتى دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى.

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدى القارئ نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الأجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية، مدعمة بقراءة واسعة فى التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور إلى اللغات، ومن الدين إلى الأدب، ومن الجغرافيا والاجتماع إلى العمارة والهندسة.. إلخ.

ولقد يختلف القارئ مع بعض الأحكام والنظرات التى أوردها المؤلف كأجنبى عابر، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عمومًا نقطة ضعف الكاتب الأجنبى أيًّا كان ومهما

---

(١) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Econ omique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

حاول، ولكن من المحقق - بالمقابل - أننا سنلمس لمسًا نقطة القوة وميزة العين الأجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة ما قد أخفى الألف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد.

الكتاب إذن - فى كلمة - قصة رحلة travelogue رحلة فى الزمان والمكان، طولها مدينة وعرضها زيارة. ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك، وممتعة وجذابة إلى ذلك. إنه سياحة بلا دليل، وتاريخ بلا أرقام، وجغرافية بلا خرائط، وهندسة وعمارة بلا لوحات، واجتماع بلا نظريات، وأيضًا سياسة بلا شعارات: قل باختصار: علم وثقافة بلا دموع، كما يعبر الأوربيون.

نعم، بلا دموع. ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه المقدمة. ففى تصورنا أن مثلها - لا سيما ونحن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة - ينبغى أن يوفر الأساس العلمى الصلب، والقاعدة المادية والفيزيقية لهذا البناء المدنى الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد. فلعل من المفيد للقاهرى

ابن العاصمة، وللمصرى أبى العاصمة، فضلا عن أخيها العربى، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لأحيائها وحياتها.

لتكن هذه، إذن وبعبارة أخرى، مقدمة مبسطة فى جغرافية المدينة، تحلل الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعًا وموضعًا، وتتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه -بالفعل- جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى.

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة -أحسب- إلى الوقوف عندها طويلاً أو قصيرًا، وهى من قلم واحد من سادة الأدب والفكر وعمالقته المعدودين فى مصر، ذى سلطان عظيم على لغتى الأصل والنقل معًا بل وعلى

الثقافتين العـربية والغـربية عـلى حد سـواء وعلى أرفـع المستويات. ثم إن أمر هذه الترجمة متروك للقارئ نفسه، فهى مكافأته الحقيقية -كما أثق- فى هذه الرحلة الشائقة. وحسبى هنا أن أشهد مخلصًا أننى قطعت شوطًا كبيـرًا فى مـطالعة النص وأنـا أظنه تـأليفًا ودون أن أفـطن إلى أنه عمـل مترجم، وهـذه ولا شك أكـبر شهادة لأى تـرجمة ومترجم. فأنت هنا تشعر أنك تقرأ لصـاحب «القنديـل» بأسلوبه، بجمله التأثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهتـه، كل أولئـك فى أمانـة وولاء للنص الأجنبى هما أول مـا يطلب فى تـرجمة. وهنـاك كما يقـال من إذا ألفوا ترجموا، وإذا ترجموا ألفوا، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هـذا. على العكس تمـامًا، ستجـد التزامًـا أمينًـا بـالنص حريصًا على روح المؤلف، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتـزازات التى تسقط فيها عبودية الحرفية.

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافى الكبير الذى تحدده العلائق المكانية العريضة والقيم الإقليمية النسبية التى تتعدى كثيرًا جدًّا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها. لذا فهو فكرة متغيرة على العصور، وبالتالى فقليل من المواقع ما يعد خالدًا فى التاريخ. أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة، وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

والقاهرة تحتل موقعًا فريدًا فى مصر وخارج مصر. ففى إطار التقاء الدلتا بالصعيد، فى عقدة الوادى وصرته، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه، قد تنتقل من موضع إلى موضع، ولكنها لا تخرج عنه إلا فى فترات عابرة - وربما قيل شاذة - فى التاريخ القومى، مثله فى هذا مثل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد، ومثل

تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس.

فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر، مجمع الوادى والفرعين، وملتقى الصحراوين، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى. فمن منف الفرعونية (فى منطقة البدرشين حاليًا) إلى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الآن) إلى بابليون (مصر القديمة) إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية - كل أولئك حلقات متباينة فى سلسلة جغرافية أو نسل أقليمى واحد أساسًا.

وإذا كانت العاصمة قد عرفت اطارًا إقليميًّا مختلفًا ومتطوحًا أكثر من مرة، كطيبة (الأقصر) فى الجنوب الأقصى، وأفاريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا، والاسكندرية البطلمية الرومانية، فإنما كانت الأولى فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبى بحت، بينما أتت الثالثة انحرافة استعمارية

لامبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط. وظلت حينًا أشبه بجزيرة غريبة من الأرخبيل اليونانى نقلت وألصقت بالساحل المصرى سياسيًا وبشريًا.

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة فى التوجيه الطبيعي والسياسى: فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية، ويشير إلى أن منف، التي كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالاً بالصعيد (حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الأعظم على ضفته الغربية)، كانت عمومًا أدنى إلى التوجيه المصري المحلى..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقًا مع توجيه الفتح العربى الجديد، الذى هو نحو الخارج أولاً وبرى الطابع ثانيًا، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو «ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء»، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه. ومن هنا أصبحت الفسطاط فى موضع أشبه بالكوفة والبصرة فى العراق، كلها ترسم

مروحة حول رأس الجزيرة العربية، وكل منهـا يقع عـلى نهاية واد صحراوى يخـرج منها أو قـربها وينتهى إلى مـاء نهر كبير ولكن أساسًا دون أن تعبره.

من هناك أيضًا بـدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمـام الفسـطاط - لاحظ اشتقـاق الاسم من الاجتيـاز والمجـاز - أى همزة الـوصل بـين العـاصمـة والصعيـد، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولـذا ظلت دائمًا وحتى بـدايات قـرننا هـذا حلة صغيرة مجمـدة. وفى هـذا الدور كانت جـزيرة الـروضة أشبـه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط، يكمله عادة نصف آخـر معلق من السفن الثابتة..

ومن الضرورى هنا أن نذكر أن موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبًا إنما يمثل ما كان فى حينه أضيق - وأسهل - عبـور للنهر بـين ضفتيه، فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها. ذلك أن شاطئ النيل الشـرقى لم يكن يتبع حـده الحالى، بـل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو

الشمـال الشرقى إلى قلب القـاهرة الحـالى فى الشمـال، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعـة الحاليـة تقريبًا ماء وجزءًا من مجرى النيل.

ومعنى هذا أيضًا أن الضفة الشرقيـة لم تكن بمثل منهـا يمثـل إضافـة لليابس تكـونت بالتـدريـج عـبر القـرون اتساعها الحالى، بل كانت أقل مسـاحة، والمثلث الغـربى نتيجة لإرسابـات النهر الـطميية، بينـما أخذ النهـر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام، وهذه هى الحركـة التاريخيـة التى تعـرف بهجرة مجـرى النيل نحـو الغـرب. أمـا تلك الأرض التى انحســر عنهـا النهــر فلم تكن نـاضجــة فيزيوغرافيًا على الفور، وإنمـا ظلت مواطئ رطبـة تملؤها البحيــرات والخلجـان والمضــاحـل ولا تصلح للسكنى والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابـة. فمثـلًا لم تظهـر منطقـة الأزبكية كـأرض صلبة إلا منـذ الفاطمية، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الأيوبية.

وعند هذا الحد، يمكننا أن نكوّن تصورًا عريضًا لموضع منطقة القاهرة عامة. فـالضفة الشـرقية تحـدها سـلاسل

تلال تقترب من النهر فى الجنوب وتنفرج بعيدًا عنه كلما اتجهنا شمالاً هى جبل المقطم الذى ينتهى فى الشمال بالجبل الأحمر قرب العباسية. وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر فى الجنوب، ٨٠ مترًا فى الشمال. وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحو الغرب كتلول ثانوية هى من الجنوب إلى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة.

فإذا عرفنا أن شاطئ النيل هنا يقع عمومًا على منسوب نحو ٢٠ مترًا، أدركنا أن الضفة الشرقية، التى تتسع كالمروحة شمالاً وتضيق جنوبًا، ينحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء إلى النهر، أى أن القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض (كلمة بولاق مثلا أصلها بلاق وتعنى لغة «الأرض المنخفضة»)، بمثل ما أن الشرقى أقدم جدا فى تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر.

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية، فليس ثمة خائط تلى، بل تمتد الأرض الزراعية حتى هامش

الصحراء، والأرض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر إلا بالبوصات حيث يصل فى الضفة الشرقية إلى عشرات الأمتار، إلا أنه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر أن يرى من فوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة.

وترتيبا على ذلك كله، فإن أرض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية، بينما الشرقية منحدرة تصلها نهايات الأودية الصحراوية والتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها أكثر سكان الأحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة. وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط.

أخيرًا وعمومًا، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت فى الميزان؟ ثمة مزايا لاشك واضحة. فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل، وهى مفتوحة من الشمال فقط. ثم ان وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب. وارتفاع القطاع الشرقى يعوض عند البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة. وأخيرًا فان كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة - كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق إلى الدلتا الواسعة - هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة.

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الإطار الطبيعى الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى. حين نشأت

الفسطاط فى أقصى الجنوب، قرب النهر والتل معًا، فـإنما كانت مدينة حربية أساسا، تنشد موضع حماية معلقـا على التـل ومحصنًـا بـالـطبيعـة. فكـانت فى النتيجـة مـدينـة أكروبوليس، أى مـدينة قمـة تل. (ومن الـطريف، وهو) بالتأكيد أكثر من صدفة، ان ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حـد تشبيه جـامع ابن طـولون عـلى جبله بالبارثينون على الأكـروبول فى أثينـا !) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها، ثم القطائع عـلى جبل يشكر فى نفس الاتجاه، وأخيرًا القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة، فإنها لم تغير تلك الصفة الأكروبولية العسكرية أساسًا، فكـانت جميعها تلتـزم السفوح التليـة العالية فى الشرق، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبـة. وكل مـا حدث أنها كانت تزحف فى موضع جنوبى إلى موضع أكثر شمالية.

ومن الطريف، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسـورة وسـور المدينـة، أن نلاحظ أولا أن مصـر فى هذا الصـدد شذوذ عالمى نادر، وثانيًا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر فى

مصر نفسها.. ففى العصور الوسطى وعهد الإقطاع كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبًا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية. ولكن حالات ثلاث فقط فى العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الإقطاعى منذ وقت مبكر: تلك هى بريطانيا واليابان ومصر وكلها جزر حقيقية أو مجازًا على ضلوع قارة يفصلها عن بحر الماء أو بحر الرمل. لقد كانت الصحراء - كما يعبر لويس ممفورد - هى السور الطبيعى لمصر. ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تمامًا. فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائمًا والصراع الداخلى كذلك، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الإقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانئ الثغور.

هذا عن نمو المدينة فى حضن التلال. وفى المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال، توسع

فى اتجـاه جديـد نحو الغـرب. فمع نمـو الأرض الطمييـة ونضجها الفيزيوغرافى على حساب النهر المتراجع غربـًا، بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربًا. لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العـالية إلى الكنتورات المنخفضة بالتدريـج. وبعد أن كـانت تتشبث بضلوع التـل ورأسه وتخشى الاقتـراب من النهـر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه riv-er – SHY أخذت تتحول من مدينة أكروبوليس معلقة إلى مدينة نهرية شاطئية مستوية. لقد تحررت المدينة من عقال الجبل.وإسار السور معًا وفى نفس الوقت.

وفى المحصلة، فلقـد أخذت رقعـة العمران والمنـطقـة المبنية تنمو فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد، شمالاً وغربًا، أو قل على محـور شمالى غـربى عمومـًا. وتلك هى الحركـة التاريخية الأساسية والمفتاح فى نمو القـاهرة، وهى حـركة مطردة وإيقاع ثابت، مهما تـوقفت المدينـة أو انتسكت فى مراحل الجمود أو الانكماش.

وحتى أيـام الحملة الفرنسيـة ومحمـد عـلى كـان خط

الحسينيـة – باب الشعـرية – بـولاق يمثل أقصى حـدود امتداد المدينة شمالاً، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل مـا إلى الجنوب كـان عمرانـًا كامـلًا وسكنى متصلة، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقـة المبنية، ودون أن يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ولقد كان محمد على هو الذى اختـرق ذلك الحـد وتعداه شمالاً، نحو شبرا، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية. ومـع ذلك فقـد كان محمـد على نفسـه هو الـذى بدأ الاتجـاه إلى جاردن سيتى لتكـون سكنًا راقيًـا لعـائلاتـه، بينـما أن حى الاسمـاعيليـة لم يبـدأ إلا أيـام إسماعيل والتوفيقية أيام توفيق.

وبالمثل فإن النمو الأساسى فى نطاق مثل الفجالـة – الـظاهر – غمـرة – السكاكينى، أى جنـوب خط المترو ومحـطة مصر، لم يتم حقيقـة الا بعد ١٩٠٠. وأحـدث من ذلـك كله بـالـطبـع نمـو الشمـال الشـرقى ابتـداء من الدمرداش ومنشية الصدر عـبر القبة بـأقسامهـا ومنشية البكرى حيث يتفرع إلى شعبتين: إلى الزيتون فالحلميـة

فالمطرية فعين شمس شمالاً، والى مصر الجديدة جنوبًا. وهذا يصدق أيضاً على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد).

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالى، وظلت تنمو شمالاً ببطء كشريط يزداد سمكًا وعمقًا، إلى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة إلى امبابة فى عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد. وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائمًا «جنوب» القاهرة، أصبح يقع «غربها» نصًا. وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية بأستثناء بندر الجيزة هو نمو طارئ حديث جدًا إذا قورن بالضفة الشرقية عمومًا.

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله - على الضفتين - مندفع نحو الشمال، وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرًا وهى أن النمو

متـوقف تمامًـا إلى درجة الشلل فى الجنـوب، وفى الضفتين أيضًا على السواء. فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنـة قـرب أثر النبى، وكـذلك الجيـزة القديـة (البندر). وإذا كانت المعادى وحلوان عـلى الضفة الشـرقية تمثـلان نموًّا حديثًا وعصريًّا، حلوان منذ اسماعيل كمدينـة استشفاء، والمعـادى منـذ تـوسعت وتـوطـدت جـاليـة الاستعمـار البريطانى، فإنها تمثل ضـواحى منفصلة عن جسم المدينـة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكـدها. وقـل الشىء نفسه عن نمـو منـطقـة الهـرم حـديثـا، فهى أقـرب إلى النمـو الشـريـطى الخـطى عـلى أطـراف المـدن Ribbon development.

والخـلاصة أن الحـدود الجنوبيـة لجسم القاهـرة تمثـل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركـة المدينـة، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة الناميـة والدينـامية Variables وأن فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنـوب ومصـر الجـديـدة فى أقصى الشمـال لتلخيصـا بليغا لكـل تاريـخ وحركـة النمو داخـل هـذا

المجمع المدنى الحافل.

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهلى فى الشمال. فلاشك أيضًا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصرف الخارجى. بل قد يمكن أن يقال إن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الأساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد فى نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب..

واذا كان التناقض فى قوة النمو واضحًا صارخ الوضوح ما بين الشمال والجنوب، فهو على الأقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضًا. ففى الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل إمكانيات النمو، حتى فى الوقت الحالى لا يمثل مشروع

مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية. أما غـربًا فـإن المدينة استعمرت النهر نفسـه - أعنى جزيـرتى الجزيـرة والروضة - ثم عبرته لتجعل من الضفة الغـربية شقيقـة صغرى للشرقية تناظرها طولا وأن دقت عرضًا، ولتجعل من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقـال . à cheval

ومن المحتمـل فى المستقبل أن يـرجح معـدل النمو فى الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبيًّا، لأن الأولى هى جبهـة ريادة العـاصمة الآن وطـاقة أو كـوة رئيسيـة لتمددها. ويمكن أن نعبر عن هذا بـطريقة أخـرى فنقول إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى فقد تتحول فى بضعة عقود الى المحور الغربى. وقـد وصل عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور فى الجنوب وميت عقبـة فى الشمـال، وربمـا واصـل نمـوه إلى الخط الشريانى للسكة الحديدية بين الوجهين.

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة اذ تزحف شمالا فى موجتها المدية العاتية، وبسرعة العاصفة

فى العقود الأخيرة خاصة، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق فى الجنوب، فهى إنما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا. أن الأصل فى القاهرة - عاصمة - أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه، تنتمى إلى الدلتا بقدر ما تنتمى إلى الصعيد. ولكن الواقع المحقق الآن أنها أدخل فى فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفًا إليها..

ذلك وكأنما هى تزحف تدريجيًا مع رأس الدلتا (التى كانت إزاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتى تزحف شمالا باستمرار. أو كأنما هى تزحف مع مصر الحديثة عمومًا، حيث يقتصر المعمور فى أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالأخص مع السد العالى)، ويتمدد فى أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالأرض الزراعية قريبًا الى سيف البحر). أو - أخيرًا - كأنما هى ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبى فى اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الآن لا يقدم إلا ٣٨٪ من

عائد الزراعة المصرية)..

وهذا ما يقودنا إلى وجه شبه آخر فى الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء فى مصر. إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطئ بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص، فهى أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى إلى نحو ١٣ كم، لا تزيد فى أقصى عرض لها عن ٧ كم، وتقل عن ذلك كثيرًا فى المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق فى أقصى الجنوب. وبينما يأخذ النيل محورًا شماليًا جنوبيًا بعامة، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن.. ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطًا واحدًا منتظما، بل يتقعر فى وسطه لأنه يتقنل أساسًا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا - روض الفرج فى الشمال، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء النيل، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية.

الشكل إذن مروحى بـوضوح، تكمن خلفـه ضوابط الموضع وتضاريسه الأولية، سواء أخذنا الضفـة الشرقيـة على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية. وهـذه اذن مروحـة منشورة مفتوحـة، يدهـا فى الجنوب. وهـذا يذكـرنا عـلى الفـور - وان يكن على تصغـير شديـد - بشكل الـدلتا نفسهـا. وحتى لسانـا النمو الشمـاليان السـابق ذكرهمـا يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد! بل اننا إذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحيـاء فى الجنوب عـبر المعادى وحلوان كيـد قصيرة لمـروحـة العـاصمـة، لاقترب الشكل جميعًا من هيئة مصر عمومًـا حيث يرسم الصعيد يدًا طويلة جدًا، ولكنها ليست قوية جدًا، لمروحة الـدلتا. إن عـاصمتنـا لا تلخص كيـان مصـر البشـرى فحسب، وإنما تختزل شكلهـا الجغرافى أيضًـا فى بقعة أو فى كبسولة.

ماذا إذن عن توسع ونمو القـاهرة الـرأسى، بعد ذلـك النمو الأفقى الطاغى؟ معه جنبًا إلى جنب تقـدم بإيقـاع متناغم. فتاريخ المدينة لم يكن تمديـدًا للأطـراف فحسب

بل وتكثيفا للداخل أيضًا. ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتهـا المبنية فجـوات وفراغـات ضخمة من الخراب أو الخواء، وحتى أوائل القرن الماضى كان جسم المدينة مبعثرًا مخلخلا غير ملمـوم، ولكنه أخـذ يلتئم بـالتدريـج. وبينما كـانت الأطراف تنمـو كفيللات مبعثرة وسط الحقول، كانت الفيللات فى الوسط تتحـول الى عمـارات، والعمارات تتنـاطح وتتـلاحم وتتسابق إلى أعلى كالأشجار فى الغابة تتصارع من أجل الوصـول إلى الشمس. وبين هذا وذاك جميعـا توشـك المدينـة أن تغص وتختنق ولا تكـاد تجد رئـة خضراء أو مسـاحة مكشـوفة. والناظر إلى خريطة المنطقة المبنيـة اليوم فى القـاهرة قـد يحسب خـطأ أن بها فـراغات غـير مستغلة كتلك التلول المتقـدمة فى عـين الصيرة وزينهم وقـطع المـرأة فى شـرق المدينة. ولكن الحقيقة إن هذه حدود المنطقة المبنية هنـاك، وانمـا تفصـل بـين مـدينـة الأحيـاء ومـدينـة الأمـوات، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها.

وفى ختام هذا الحـديث عن النمو، لابـد لنا من وقفـة

تجيب على سؤال ملح: ما الذى أطلق المدينة من عقالها، خاصة منذ القرن الماضى، كمارد خرج من القمقم؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية إلا فى أواخر العصور الوسطى – وعلى استحياء ذلك. ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمددًا جديدًا تمامًا صوب النهر، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الأولى من هذا القرن، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مدية حقيقية هى منذ الثورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات فى تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية: الأولى هى المرحلة النووية، والثانية هى التكوينية، والاخيرة هى الانفجارية.

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الألف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن

الأخير عنه طوال القرن الاسبق عليه. لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية، وانساحت من المقطم إلى الهرم، ومن الصحراء إلى الصحراء، ومن حلوان إلى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسي هي سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود. ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميًّا في تعداد السكان، ولكن يكفي هنا أن نذكر أن المدينة التي بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون، قد تعدت الآن الخمسة ملايين.

مرة أخرى: لماذا، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المريد؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان، لا يكفي أي منهما وحده تفسيرًا إلا لمرحلة محددة. الأول هو الموضع والثانى هو المواصلات. فمن السهل أن نرى أن النمو في المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج. ولكن لا شيء يفسر المرحلة التكوينية، فضلا بالتأكيد عن الانفجارية من بعدها، إلا ثورة المواصلات.

الحديثة. فحتى محمد على، كانت الدواب هى وسيلة النقل الأساسية داخل المدينة، والمركب الشراعى وسيلته خارجها. كان نفس الحركة البشرية قصيرًا للغاية، ومعه كان توسع المدينة قاصرًا بالضرورة. ثم بدأت سلسلة تاريخية: من الدواب إلى عربات الخيل الى خطوط «سوارس» المنتظمة إلى الترام ثم أخيرًا السيارة الخاصة والعامة. وحدود القاهرة العمرانية فى أى لحظة خلال هذه المرحلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك.

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه: هذا النمو، هل هو صحى سليم تمامًا؟ أيسير فى أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيدا؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمسة ملايين من ثلاثين مليونًا أو يزيد، ولن نقول «الورم الأكبر The great Wen» كما قال كوبت Cobbet عن لندن فى عصر الصناعة. فمن المحتمل جدًّا أن القاهرة تعانى من إفراط المتروبوليتانية مثلما تعانى مصرُ نفسها من إفراط السكان بعامة. ولكن لعل أخطر من هذا النمو – الشيطانى نوعًا

Mushroom – ملمـح ملح مزمن قـد يحمل شبهـة النمـو السرطانى ذاته.

والإشارة هنا هى يقيناً إلى توسع الرقعـة المبنية عـلى الأرض الزراعية الثمينة فى عالم جغـرافى متناه يعـانى من مجاعة أرضية. فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولاشك فى مـدى عمرهم آلاف الأفـدنة الـزراعية فى شبـرا والجيزة (بمعناهما الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والتـرام تمضى لأميـال وسط مزارع ومشـاتل الفـواكه والـزهـور والخضروات الكثيفة، ظلت تتضـاءل وتنكمش بالتـدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المبانى. ولكن هذا كله تحول اليوم إلى مبان كثيفـة ونفيت الزراعـة الى آفاق بالغة التطوح والبعد. وإذا كان هذا لا يصدق عـلى لسان النمو فى اتجاه مصر الجـديدة فهـو للأسف صـادق على شعبته الثـانية فى اتجـاه عين شمس حيث لا يحـاذى امتـداد العمـران حـافـة المـزروع وإنمـا يتـرامى عليـه، لا يجاوره بل يجاوزه.

إن المدينة تأكل سكانها كما يقـال، ولكنها هنـا تأكـل

أرضهـا أيضًـا، فهى من قــوارض الأرض الـزراعيــة، وبشراهة ذلك. وقد آن أن يكون الرمل للعمران والـطين للزراعة. وفى شمال شرق القاهرة تجاه العبـاسية ومـدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب، بينما قـد يكمن الحل بعد ذلـك فى الضواحى المنفصلة فيـزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا فى عرض الوادى وانما عـلى حافتى الصحراوين، خاصة على طول مخارج المدينة الأساسية فى طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين.

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النـظرة العابـرة إلى خريـطة القاهـرة، بشبكـة شوارعها ومـربعاتهـا السكنية، لا يمكن أن تخـطئ ثلاثـة مـلامح بـارزة فى خطة العـاصمة. أولهـا وجود عنصـرين أساسيين يتقاسمان رقعـة المدينـة: تخطيط - أو بـالأصح لا تخطيط - عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق فى المدن بل والقرى المصريةعامة، ويمثل فى العاصمة مناطق النواة

القديمة منها، وتخطيط هندسي مصمم منتظم في أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره العنصر العصري «الأوربي» الجديد في تركيب المدن المصرية الذي أدخل منذ القرن الماضي فقط. وهذه الثنائية الأساسية في الخطة ترمز بسهولة وبلاغة إلى الثنائية الحضارية في مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل.

الملمح الثاني هو سيادة مساحة التخطيط الهندسي الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائي القديم. وقد يبدو هذا غريبًا نظرًا لحداثة عهد التخطيط الهندسي المنتظم، ولكنه في الحقيقة يلخص – في نظرة – قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هي أساسًا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية في تاريخها. أضف إلى هذا أن كثيرًا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسي فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم، مما يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها ثالثًا، وأخيرًا،

فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسًا فى أطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب، وإن وجدت منها جيوب شاذة فى الشمال أو الوسط. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع أوضح جدًّا فى الضفة الغربية منه فى الشرقية، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسى كل الشمال. ويعنى هذا فى نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الأعلى من المدينة، بعكس مناطق التخطيط الهندسى الحديث.

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة فى المدينة المصرية عامة، حيث نجد دائمًا كتلة قديمة عشوائية فى القطاع الجنوبى تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب، بينما تترامى تحت أقدامها فى القطاع الشمالى وعلى مستوى الأرض الطبيعى رقعة من التخطيط العصرى المنتظم. فالقطاع الجنوبى هو نواة المدينة قبل العصر الحديث، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الأخير. وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى

الآخر بحسب خطة المدينة من النمـو والتضخم فى الفترة الحديثة. أى أنـه كلما زاد نمو المـدينة ودرجـة انفجار هـذا النمو، قلت نسبة مسـاحة النـواة العشوائيـة القديمـة إلى مساحة التخطيط الهندسى الحديث - والعكس.

فى ضـوء هذه المؤشـرات الأساسيـة، يمكننـا الآن أن نتتبـع خـطط القــاهـرة بشىء من التفصيــل.. ولنبـدأ باللاتخطيط القديم. هذا نوع من الخطة البدائية الفطريـة التى تظهر تلقائية غير عامـدة، خطة بـلا تخطيط كـما قد نقول، تبرز من مجرد تجمع المبانى معًا. وهى فى جـوهرهـا خطة القرية المصريـة والتى لا تخلو تمامًـا من منطق، بـل ومنطق هندسى، ولكنه باهت بالغ التقـريب. فثمة حـول الحلة طـريق دائرى ولكنـه غير منتـظم (داير النـاحيـة) تخـرج منه إلى قلب المنـطقة المبنيـة عشرات من الـطرق الضيقة والحارات التى تنتهى إلى نهايـات مسدودة فى قلب البلد - أى أزقـة مغلقة - والتى تتلوى وتتفـرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى. والعشوائية باديـة لاشك فيهـا، ولكن خلفها تكمن جـرثومـة الخـطة المتشعبـة أو

الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى radio-concentric.

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من باب الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية فى الشمال، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبًا. ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى أقصى الجنوب. وهذه بالفعل هى القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية التى تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد، الذى يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانًا إلى طرق سليمة، والذى يضاعف دوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم. والكل ينتهى إلى تيه لابرنتى من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال. من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع، أى بعملية فرض أو مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط. والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار فى كل هذا النطاق.

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو

أحياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة العشوائية نجد إلى الشرق والجنوب منها توًّا أو وشيكًا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة. على أن هذه لا ينبغى أن تخدعنا، فإنما هى مدينة الأموات - المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير - التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاما!

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة، فى حى بولاق، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى، ثم لا نلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية، أى فى نواة الجيزة القديمة (البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم إلى الشمال.

وإذ ننتقل إلى التخطيط الهندسى الحديث، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين

قزمية متفرقة من التخطيط العشوائى على أطراف المدينة هى القرى والعزب السابقة التى أغرقها وابتلعها المد الحديث، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة فى شمال شبرا، وقرى كإمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور فى الضفة الغربية، إذ ننتقل إليه نجد صورة مختلفة تمامًا، بسيطة جدًّا ولكنها بالغة التعقيد جدًّا. فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لا نهائى من وحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلاً ما تجنح إلى الدائرة أو المضلع. ولكنها دائمًا خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة فى هندسيتها. أما التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع فى توجيهها بالنسبة للجهات الأربع الأصلية محورًا واحدًا باستمرار، كما هو الحال فى المدينة الأمريكية مثلاً، وإنما تتبع - حرفيًّا - عشرات وعشرات من المحاور التى تختلف من رقعة إلى أخرى، وتستقل بها كل واحدة عن الأخرى كأنها صفحة ألغاز Jig-saw. ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة فى آن واحد. ولا يستثنى من ذلك إلا المعادى وحلوان حيث محور

توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر فى كل المنطقة المبنية.

وإذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطًا، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين: النهر، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الأحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها.

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى. فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية، ولكن على الأخيرة بالأخص، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيًا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه، كشارعى الجيزة والقصر العينى على الترتيب. ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة. وكذلك تفعل الشوراع الثانوية الموازية إلى الداخل. ولما كانت الشوراع العرضية عمودية على الطولية، فإن شبكة

الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير فى محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة.

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى إمبابة، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلاً. وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان: الشوارع الطولية تحاذى النهر، والعرضية تتعامد عليه وعليها. وبالمثل فى جزيرة الروضة، حيث توازى الشوارع الطولية شاطئى الجزيرة الاثنين، حتى إذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر، فتتكون شرائح مثلثة شاذة. ونفس الشىء واضح فى فم الخليج وأبوالسعود شمال مصر القديمة، مثلما هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عمومًا.

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل، بعيدًا عن أثر النهر. فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية، فإذا انحرف العمود انحرفت معه

واتجهت بحسب توجيهه. أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة، أو ربما ضوابط المواضع القديمة كالترع الحفرية التى ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية).

والأمثلة عديدة. ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منهما. ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى. ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدًا. غير أن هذه جميعًا إنما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته. والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورًا يوشك أن

يكون شرقيًّا غربيًّا، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها المحور إلى شمالى جنوبى، في حين يتعدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول.

هذا، وتمثل الزمالك - النصف الشمالى من الجزيرة - حالة طريفة، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ. فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسى الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (أبو العلا) وكوبرى الزمالك، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالاً هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف.. إلخ، بينما إلى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصًّا.

وينبغى أخيرًا أن نذكر نمطًا خاصا ومحليًّا من التخطيط الهندسى، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة. ونعنى بهذا خطة الحدائق الإنجليزية English Gardens، التى تنحدر أصلاً عن فن تخطيط البساتين Landscape gardening ففى

جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز. وبقدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى، تعطى من مشاكل المواصلات. فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانها ولغير سكانها على ما نعلم.

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى. ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبًا، والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا.

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الأحياء والشوارع، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصًا أكثر للتهوية والإشعاع والظل، كما يمنع تحول

المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلاً. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفًا مفككًا. وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة، تتحول بها إلى شىء أشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة، كما فى الاسماعيلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكينى بالظاهر، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة.

غير أن هذا غالباً ترقيع موضعى أوتحايل محلى، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام. فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة، مع ضخامة رقعة العاصمة عمومًا، لكان حقًا أن يقال إن القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها. ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات، وهو ما ينقلنا إلى شبكة النقل العاصمية.

* * *

رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائى، إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشععة على مستوى العاصمة ككل. وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هى التى تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها. ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالاً، وبولاق غربًا، والجلاء جنوبًا بغرب، الجمهورية جنوبًا (إبراهيم سابقًا)، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحى شمال شرق القاهرة. وتقدم العتبة بؤرة أخرى، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش إلى العباسية، شارع الموسكى - جوهر إلى الجمالية، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة. وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى.

على أن هذه الحزم المتشععة لا تؤلف فيما بينها خطة متشععة بمعنى الكلمة، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليديًا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع

ما يرسم خطة متشعبة بـارزة، لا سيما من مـركزين همـا ميدانا محطة مصر والسيدة زينب.

وعـدا هذا فينبغى أن نـلاحظ أثر مـواقـع الكبـارى النهرية على تقنيل شبكة المواصـلات. فعلى جـانبى النهر فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفـة من محاور الحـركة والنقـل، بل إن كـلا من هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر. ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك فى الشمـال، وكوبـرى الجيزة والملك الصـالـح فى الجنـوب، بـدرجات متفـاوتة. والحقيقـة أن مواقـع هـذه الكبـارى المتناظرة والمترابطة، التى هى أعنـاق الزجـاجة الحـاسمة والخانقة بين ضفتى النهر، هى التى تحـدد معظم الشـرايين العـرضية التى تقـطع المدينـة من طرف إلى طـرف. والتى تعانى القاهرة من قلتها بوضوح.

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبيـة التى تخترق بـالضرورة قلب المـدينة فيختنق بهـا. وهذا هـو المحـرك -

الأساسى خلف فكرة إنشاء طريق دائرى يلف بأطرف المدينة دون أن يخترق قلبها، كما يتمثل فى شارع بورسعيد، أطول شوارع القاهرة الآن، والذى يرتبط أساسًا بشرق المدينة القديم، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثًا.

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة. ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان. أولاً، انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية إلى العمل. ثانيًا، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أومثلثين ضخمين فى شبرا – روض الفرج وفى مصر الجديدة – عين شمس، يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رءوسها، أى بأعناق زجاجة مختنقة على التو. وهذا النمط بارز جدًا فى الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلاً إلا من عنق دقيق عند كوبرى القبة. فى كل هذه المواقع بنوعيها، كبارى النهر وأعناق

الضواحى، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق.

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الأطراف فى الضفة الغربية عمومًا وفى شمال الضفة الشرقية هى باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل. ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الأحياء. فإن كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات الخاصة، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس على وتترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا - روض الفرج). وإن كانت سكنًا راقيًا أقل كثافة سكان، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى، والضفة الغربية).

ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرًا عن شبكة النقل الأخف. ويمكن ابتداء أن نزعم أن محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامش إلى الوسط. إنها «مداخل» المدينة ولكن فى الداخل. ولعلها أكثر من صدفة أسماء «باب» الحديد،

و«باب» اللوق، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وإن لم تكن موقعًا وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلاً.

ومواقع محطات السكك الحديدية فى القاهرة استراتيجية تمامًا، فمحطة مصر؛ (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحى فى اتجاهات ثلاثة. شمالاً وشمالاً شرقًا وجنوبًا.

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس، فهى أقطاب مغنطيسية للمواصلات عمومًا ونقط انقطاع وتغيير فى وسيلة المواصلات (من السيارة إلى القطار أو العكس). غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول. خط مترو شمال شرق القاهرة.

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية فى المدينة فى أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة

تحول أخيرًا إلى صراع انتصر فيه القطار فى محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيدًا الى أطراف المدينة فى شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية. أما فى محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب، إذ تقرر مبدئيًا فى مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحى جنوبًا إلى كوبرى الملك الصالح.

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسج مشكلة المواصلات اخطبوطها الخانق المزمن فى العاصمة التى يئست نهائيًا من الحلول السطحية - أعنى على سطح الأرض - فلجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل فى فكرة مترو الأنفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسًا. إلا أن جذور المشكلة تكمن فى أكثر من قضية، منها الفارق الحضارى: فشوارع المدينة خططت فى عصر - ولعصر - ما قبل السيارة وما قبل الصناعة، وهى الآن تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية.

ولقـد أثبتت تجـربـة العـواصم الكبـرى المـاثلة أن خـطوط الأنفاق ليست بـالضرورة الكلمـة الأخيـرة فى القضية، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحيـة أن تعود. فلندن وباريس تملكان خطوط انفاقها منذ عقود وعقـود، وكذلك نيويورك، ومشكلة المواصلات السـطحية لم تـزل مـزمنة. ولعـل بعض الدرس المستفـاد هـو أن القـاهـرة الكبـرى بحاجـة حقيقية - مـع أو قبـل الأنفـاق - إلى عمليـة «هسمنـة Haussmannisation»، كـما تسمى، عـلى غرار ما عرفت باريس فى السبعينـات الماضيـة، جريئـة واسعة الخيال دون أن تكون راديكاليـة بتارة بـالضرورة، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائيـة نظامًـا متشععًا، متعدد البؤرات - منعًا لتركيز المشكلة فى نقـطة واحدة - من البـوليفارات المحـورية الشـريـانيـة ذات التـوقيـع الاستراتيجى بحيث تتحول هيـدرولوجيـة النقل فى قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب.

كـذلك لا مفـر من إعادة تـوزيع العمـل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى. فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (.C.B.D كـما يسميه الأمـريكيون) وغيـابه إلى

حد بعيد فى الأحياء السكنية فى الأطـراف عامـل جذرى وقاعدى. ولعـل من الضرورى أن يتحـول قلب المدينـة نفسـه هو الآخـر إلى نهر قليل الـروافد كثـير المصـاب، بخلق نـويات جـديدة فى الأطـراف كمـراكـز ثـانـويـة subcentralisation، تخفف الضغط عن القلب المـركـزى وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل.

التركيب الوظيفى

المـدينة أى مـدينة حـزمة من الـوظائف فى التحليـل الأخير، وليست المؤسسات والمبانى إلا أوعية مـادية لتلك الوظائف المركزية.. غير أن هـذه لا تتعايش معًـا إلا بعد صـراع على المكـان، فالـوظائف تتنـافس فيما بينهـا على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من جهة نظرها، وتحصل عليـه الوظيفـة الأقدر التى تـدفع أكـثر. ولما كـانت قيم الأرض والعقـارات والإيجارات أعـلى ما تكـون فى قلب المـدينة الضيق المكتظ، فـإن وظائف المـدينة تتنضـد (أى تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجـذب بين مجمـوعة من

القوى الطاردة المـركزيـة centrifugal تطرد الأضعف إلى أطراف المدينة، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركـزية centripetal تجذب الأقوى إلى القلب..

والوظائف مجموعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتجارة والإدارة والصناعة، ووظائف خدمـات كالتعليم والدين والصحة والترفيه. غير أن بين المجموعتين حلقـة وصل هامة هي السكن. والسكن وظيفة بـالمعنى الصحيح لا شك، بل هو الوظيفة التي تغطي أكبر رقعة من مساحة أي مدينة في العادة. ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمـدخل الطبيعي لوظائف الخدمات، فهي غالبًا الإطار الذي تدور فيه وتتشكل به قليلاً أو كثيرًا. ومع ذلك فالسكن وظيفـة من نوع خاص جدًا، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييـزًا لها عن الوظائف الموجبة من إنتاج أو خدمـات. ولهذا فلعـل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينـة الاجتماعية، حيث تمثل الوظائف الموجبـة طبوغـرافيتها الاقتصادية.

* * *

وفي القاهرة، إذا بدأنا بالوظيفـة التجاريـة التي تلعب

دورًا حيويًّا فى كيانها كعاصمة قومية فضلاً عن كونها مدينة كبرى، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل فى الحقيقة ثلاث درجات من المركزية. فهناك أولاً التجارة المركزية التى تتكدس وتتزاحم بلا هوادة فى قلب المدينة. ويلمس القاهرى نبض التجارة المركزية فى مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية، ومن شارع الجمهورية إلى العتبة من ناحية أخرى، حتى الموسكى وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر.. الخ ففى هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة السلعية والمالية، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية. هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التى تتجاذب حولها المحلات الصغيرة. وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعًا.

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة، الأقل اتصالاً بالجمهور المباشر والتى تحتاج إلى

مساحات أوسع، تنزوى نوعًا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها. أما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار. فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودها مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والإطارات والأدوات الكهربية. وفى أركان ميدان الفلكى تتركز تجارة إطارات السيارات. وفى مداخل شارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة. وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والأنتيكات.. الخ. وكل هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض، وهى أكثر هدوءًا نسبيًّا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لانجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة. وبينما يظهر التخصص فى خط

واحد بحسب الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عمومًا، والذى يصل إلى مداه فى المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو.. الخ، وتلتصق وثيقًا بعين المنطقة نصًا.

من أهم الخصائص بعد هذا، الفصل الجغرافى بين محلات التجارة العصرية والقديمة التى تختلف أيضًا فى روادها، فالأولى أكثر ارتباطًا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقاته الأكثر غنى ثانيًا، بينما يكثر فى زبائن الأخيرة أبناء إقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية. فالقطاع الغربى من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية، بينما تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبًا. فهناك تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى «سويقات»، وقد يخرج من المحل إلى الرصيف ومن الرصيف إلى المتجول. كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة، كما نرى فى محلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصينى على نواصى العتبة، وكتجارة الذهب

والصياغة فى الموسكى والصاغة، والأقمشة الخشنة وغزل الأنوال الريفية فى شارع الأزهر، والعطارة فى الغـورية.. الخ .

تلك هى تجارة القاهرة المركزية، التى يتعدى إشعاعها حدود العاصمة، ولكنها مع ذلك لا تحتكـر كل نشـاطها. فهنـاك التجارة الثـانويـة أو المراكـز الثانـوية أو تجـارة الأحيـاء التىّ تظهـر فى مفارق الـطرق الاستراتيجيـة فى أغلب الأحيـاء كنسخ مصغـرة محلية - كـأنها الأقمار فى فلك شمس - من منطقة التجـارة المركـزية، التى تخـرج منها كالأشعة فى الواقع ألسنة ممتـدة على طـول الشوارع الـرئيسية فى المـدينة تحتـل المحلات التجـارية جـوانبها وواجهاتها، حتى إذا تجمعت فى مفـارق الطرق بعيـدًا عن قلب المـدينة بـرزت من تلاحمهـا وتكاثفهـا تلك المراكـز الثانوية التى تخدم الأحياء.

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة، وهى آلاف المحـلات الصغيـرة المبعثـرة فى كـل شـوارع أو زوايـا ونواصى الجيزة والأحياء السكنية، والتى يتحدد توزيعهـا

عادة بحسب كثافة السكان، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية. وعادة ما تمثل هذه مشكلة فى مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة والتموين، وتظل المنطقة خامًا تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيًّا وترفيهًا.

* * *

من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيًّا إلى الإدارية. كعاصمة سياسية، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة، تلعب الإدارة دورًا هامًا فى حياة القاهرة. ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتركز فيها. والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها بالطبع، وتميل إلى التجمع الجغرافى، كما أنها تحتاج إلى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدحم الصاخب.

من هنا، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية

الجنوب والجنوب الغربى، تمتد رقعة دولة الإدارة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين. فابتداء من ميدان التحرير، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة، وفيها بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان، يمتد لنحو الميل حى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد، بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلى إلى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا.

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميمًا ومباشرًا، وظيفيًّا وجغرافيًّا، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الآخر من شارع القصر العينى من السفارات والقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مبانى الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضًا. هنا دولة السلك السياسى الأجنبى الذى يحتاج إلى أن يتعامل مباشرة، وفورًا مع دولة الموظفين المجاورة. وقديمًا، وفى العصر الاستعمارى، فلعل الكلمة الدارجة «ما بين لا ظوغلى وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر

من عابرة. على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيفة الإدارية السياسية ارتباطًا جزئيًا، ولكنها أساسًا منطقة سكنية وليست من القلب الإدارى.

* * *

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضًا، ففيها أكبر حشد للصناعة فى البلد. وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيًا فى وظائف القاهرة، فهى منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التى تراجعت الآن كثيرًا جدًا فى أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى. وهذه التفرقة هى نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيًا وجغرافيًا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية. فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم فى داخلها ولكن بعيدًا عن قلبها التجارى.

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالاً نسبيًا خاصا فيه قدر من تجاوز. فلعل من الخير ومن المقبول لأغراضنا وفى إطار المدينة المحلى الضيق ان نطلق الأولى

على الصناعات الأكثر أهمية وحجمًا أو وزنًا فى اقتصاد أو لاندسيب المدينة، والثانية على الأقل خطرًا ومقياسًا أو ثقلًا. وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح فى القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب فى حلوان.

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية فى بولاق والسبتية، ترتبط غالبًا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية، وتعتمد أحيانًا على الخردة التى لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح)، كما تعمل فى الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة فى القرن الماضى أيام محمد على حين استمدت «المبيضة» اسمها من صناعة تبييض الأقمشة.

وعلى الجانب الآخر الشرقى من المدينة خلف الموسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب، فى الجمالية والدرب الأحمر، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التى تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة

وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية. ومن هذه الوحدات ما يقوم فى بنايات أنشئت خصيصًا للصناعة، أو فى شقق أو بدرومات المساكن العادية، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة، وبعضها نصف آلى نصف يدوى، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة، التى لا تحتاج إلى رءوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيًا، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها. ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم - وما قامت هنا - إلا فى تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية، غير أنها فى النهاية من

أهم مصادر الدخل والعمل للسكان، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة.

وأخيرًا فإن تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعى تقليدى قديم هنا. ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة كان القلب الصناعى للقاهرة الوسيطة، بتنظيماتها ونقاباتها وأسطواتها. وصناعاتها اليوم تستمد بعضًا من مسحة وخصائص صناعات الأمس، إما متطورة أو متدهورة نوعًا، وإن كانت لا تبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديمًا حين كانت كل صناعة - على طريقة العصور الوسطى - ترتبط بشوارع أو حارات معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم فى الأسماء وإن زالت من اللاندسكيب. من هذه الأسماء - التى لم تعد اسمًا على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين... الخ.

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزًا أو

نسبيًا)، التى هى أحدث جدًا من الناحية التاريخية، فإنما ننتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصى أطرافها والهوامش. فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدًا بالضرورة، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع، بل على انفصال فيزيقى عنه إن أمكن، بينما لا تجد هى نفسها أى فائدة أو منطق فى السعى إلى داخله.

وإذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيًا وعصرية تكنولوجيا، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة. ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب. فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم أساسًا، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ – ٨٠ مترا فى الشرق، ٦٥ – ٣٥ مترا فى الغرب، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر

حتى نهاية الخليفة، كما يتناثر عدد منها فى تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التى تعرف نشاطًا هامًا فى صناعة وتجارة الجير والجبس. وليس من الصدفة أن كثيرًا من مبانى شرق القاهرة هى من الحجر أكثر منها من الطوب. وعلى النقيض تمامًا من المحاجر التى ترتبط بالجبل، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها. فجزيرة الذهب غابة من المضارب، وهى المورد الأول للعاصمة.

وما دمنا هنا فى دائرة المحاجر، فقد يمكن أن نمضى منطقيًا إلى الجنوب، إلى طرة والمعصرة، لنجد استمرارًا وظيفيًا، ولكن مع انقطاع جغرافى جزئى وتكنولوجى تام، للصناعة المرتبطة بالمحاجر. فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت والجير، طفرت فى العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم صرح فى هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وإنما على مستوى القارة، يغطى إنتاجه الاستهلاك القومى ويجد فائضًا هامًا للتصدير. والوحدتان اللتان تستوعبان بضعة

آلاف من الأيدى العاملة واللتان تعدان بمقياسها وطبيعة منتجاتها من أثقل الصناعات، هما فى الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تمامًا، ولكنهما تدخلان فى صميم وشقوق كل نسيج فيه.

غير أننا فى الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا فى الشمال، وحلوان فى الجنوب. هاتان قطبا الصناعة الثقيلة، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين فى مصر عمومًا، وتبلغ قيمة رأس المال الذى وضع فى صرح كل منهما الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات.

والقطب الشمالى أقدمهما، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الأجنبية والمتمصرة والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسًا، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة. ولكن النواة التى بدأت منفصلة جغرافيًا فى شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى

توسعت زحفا: إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحى مصر، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه. كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات.. الخ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة.

وبقوة هذا القطب الصناعى، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الاسماعيلية وشارع بورسعيد، زحفت حتى مسطرد، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك.. الخ.. ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرًا وتمثل خلية من التزاحم الخطير، تجمع فى محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم.

هذا، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية

حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر فى شمال الضفة الغربية فى امبابة، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب، تخلقت حولها هى الاخرى مستعمرة عمالية - مدينة العمال بامبابة - الا انها مخططة هندسيا على نمط مستطيل. وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه... الخ

والآن، ومن وجهة جغرافية المدينة، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو الى التساؤل. لسببين أساسيين:

أولهما: أنها تقوم فى صميم الأرض الزراعية الثمينة، فهى وإن نقلت بالتحول المهنى عشرات الآلاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقمت الآلاف من أجود الأراضى، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع.

والسبب الثانى: أن هذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماماً من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف

صيفا (البحرى). فهى تلقى بكل دخانها وإفرازاتها على سماء المدينة إلى الجنوب. ولعل هذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القطاع الشمالى من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج، والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل.

غير أنه ما من شك أن الذى يفسر هذا التوقيع الخاطئ سكنيًا هو الميزة الموقعية اقتصاديًا، فهنا فى الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجى. لقد تغلبت مصالح الإنتاج على السكن، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار.

وإذ ننتقل إلى حلوان - القطب الجنوبى - نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير. فهنا ومنذ عقد

تقريباً غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة، سكنية سياحية، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town، لترتفع الأفران العالية إلى جانب ينابيعها المعدنية. هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب، قاعدة الصناعات جميعًا، بدأت على خام أسوا والنقل النهرى وتتحول إلى خام الواحات البحريـ والخط الحديدى. ففى أحضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والأفران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح، عدا صناعة السيارات تصنيعًا وتجميعًا، وعدا الصناعات الحربية والأدوات المنزلية الحديثة... الخ

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هى انقلاب اقتصادى. فأمام حلوان إلآن نمو سكانى ومد ضخم، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب يو مع حدود كتلة القاهرة المبنية(٤) مثلما دخلت الآن أكثر من

أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى، وإذا كـان التوقيـع الصناعى هنا سلبيًا من وجهة مناخ القاهرة، فإن مستقبل مدينة الاستشفـاء والعيون يصعب التنبؤ بـه فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة. ولكن المحقق على أية حـال أن ليس ثمـة مبرر جغـرافى طاغ أو واضـح لذلـك التوقيـع أصـلًا، إلا أن يكون القـرب من مجمع العـاصمة، الأمـر الذى يعود بنا إلى قضية إفراط المتروبوليتانية عمومًا.

من وظائف الإنتاج ندلف إلى وظائف الخدمات، وأولها التعليم. وللوظيفة التعليمية فى القـاهرة دور خـاص إن لم يكن فريدًا حقًا، إذ أن جمهورهـا من الطلبـة يقدر بنحـو المليـون أى خمس السكان، ولا مفـر لذلـك من أن تبرز مؤسسـاتها بـالحاح فى لانـدسكيب المـدينـة. والقـاعـدة الأصولية أن هذه توزيعها الجغرافى يتنـاسب مع درجتهـا التعليمية، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكـلًا عنقوديًـا أو شجريًا أو هرميًا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الإقليم. فمـدارس الصغار - وهى اسـاسًـا خـدمـات جيرة - أشدها انتشارًا وانتشـارًا، وتوزيعهـا سكنى بحت

أى يـرتبط بالأحيـاء السكنية. أمـا المدارس الثـانـويـة فخـدمات أحيـاء أكثر منهـا خدمـات جيرة ضيقـة، وهى لـذلك أقـل عددًا وأكـثر تباعـدًا، ولكنها سكنيـة أيضًـا بالضرورة..

وإذا كان ثمة استثنـاء للقاعـدة فهو الاستثنـاء الذى يؤكـدهـا، وهـو التعليم الأجنبى. فمـدارس الجـاليـات والارساليات الأجنبية كلها تتقاطر (أو كـانت) على قلب العاصمة التجـارى، فهى - كروادهـا - أدنى إلى المسحة التجـارية وأشبـه أن تكون عنـاصر مقتلعـة، مثـال ذلـك المدرسة اليونانية والألمانية والفرنسية قرب الفلكى (وربما أضفنـا تجاوزاً الجـامعة الأمـريكية غـير بعيد) ومـدرسـة الإرسـالية الأمـريكية قـرب حديقـة الأزبكية. الـخ أما التعليم العـالى فهو وحـده الذى يبـدى تركـزًا جغرافيًـا حاسماً أولا، وانفصالا مطلقا عن السكن ثانيًـا، وارتباطًـا حتميًا بأطراف المدينة ثالثاً، وبأطـرافها الحـديثة الـراقية العصرية رابعـاً. ذلك أن الجـامعة تحتـاج إلى مساحـات شاسعة - تتـزايد أبـداً - مثلما تحتاج إلى الهـدوء المطلق.

وهذا يتجسم فى ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية. وكل منهما - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غرباً وشرقاً، كأنهما قطبان إلا أنهما قطبان متنافران موقعاً مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب.

وتمثل جامعة الأزهر توقيعاً مختلفاً. فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حضن الجبل من الشرق توًّا، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة. ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية. غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزاً عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحي الشعبى المكتظ، الذى يضفي عليها أيضاً جوًّا وطابعاً خاصًّا. ولهذا فقد بدأت أخيراً تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيداً فى مدينة نصر.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات

العلمانية الحديثة. فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الأخير من التعليم الدينى التقليدى إلى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهلى المحدث الغنى. وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافيًا واجتماعيًا كما تتوسطه تعليمياً، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة «وذلك قبل ضمها أخيرا إلى الجامعات الحديثة، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعاً!

هذا، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه، فهو عادة –وبأنواعه المختلفة – يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية. فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية، مثلما يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية

والميكانيكية سابقا، ورشة القطن.. الخ). ويمكن فى معنى خاص ان نمد هذه القاعدة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعى الطبى بحسبان المستشفيات الجامعية تعليما وممارسة معاً. فمن أدعى الظاهرات لفتاً للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الأبحاث، التى تتركز فى شمال الروضة وعلى طول القصر العينى من كوبرى المنيل إلى فم الخليج، والتى تحدد قدرها فيما يبدو منذ بدأ القصر العينى أيام كلوت. فهذه الدائرة الملمومة لا يمكن إلا أن ترتبط فى الذهن على الفور، كما هى فى الواقع، بأكبر تجمع فى الجمهورية للأطباء وللعيادات الطبية فى دائرة باب اللوق وما حولها، وليس يفصل بينهما إلا شارع القصر العينى نفسه.

* * *

ثم ننتقل إلى وظيفة تعد - عكس التعليمية - مناقضة ومضادة للسكنية إلى حد كبير، وهى الصحية. فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها إلى الهدوء

وبأخطار العدوى، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموماً وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية، فالموقع السائد والمفضل غالباً والمحتم أحياناً هو الأطراف، وربما الأطراف المنعزلة تماماً، وقد نضيف: فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلاً عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة).

وترتبط المدافن، من زاوية معينة، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة. وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الرياح، عالياً على التل المكشوف، بعيداً عن الطين فى الرمل الجاف، منفصلاً عن جسم المدينة، هو مدينة الأموات. والواقع أن سلسلة الجبانات، من الغفير شمالاً حتى الإمام الشافعى جنوبا، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقاً وبين سلسلة التلول المتقدمة

غرباً «قطع المرأة، زينهم ، عين الصيرة،» التى بدورها تشكل نطاقاً متقطعاً يعزلها ويعزله عن السكن.

ومع ذلك ففى الإمام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده، وتداخلت مدينة الأحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس. وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاماً، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الأحياء، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة.

تبقى أخيراً بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية، إلا أنها لا تبدو كذلك دائماً فى القاهرة. فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والأندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والأماكن المكشوفة. ولأن جمهورها - فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصوراً غالباً فى الطبقات القادرة،

فهى تجنح عادة إلى أن تقع فى القطاعات الراقية من الأطراف. اعتبر مثلاً نادى الصيد خلف الدقى، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة، واستاد القاهرة فى مدينة نصر، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة.. الخ

ولقد نظن أن هذا يصدق أيضاً على نادیی الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معاً أكبر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة. ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شيء إلى قلب المدينة، وموقعه هنا إنما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن. وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين، ولكنه يفهم على ضوء الماضى. فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرًا أرستقراطيًّا له أولاً، وحين أنشأها فى العقود الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية. ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية

خاصة سرعان ما غمره فى مده واحتواه حتى أصبح الآن قريباً جدًّا من قلب المدينة. وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمى خطير فى مواصلات العاصمة. والأسوأ من هذا أنه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو. فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير إليه أما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمى (فنادق سياحية الخ) أو كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية الخ. والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة، مثلا كمنطقة نادى الصيد. أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من «رئة» طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان، فليس ردًّا، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة فى أعماق الضفة الشرقية المكتظة. ثم أن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدًا. وفوق هذا كله، فيما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية

دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمراني: مثلا السيتي في باريس، ما نهاتن في نيويورك.

* * *

مثل هذا أو شيء منه يمكن أن يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها في القاهرة، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التي تقع كلية خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية، مصدر الخطر الخارجي الأساسي. (على العكس من هذا تمامًا في ظل الاستعمار، كانت هذه المدينة العسكرية في صميم قلب المدينة، قصر النيل، استجابة لا لأغراض الدفاع الخارجي ولكن لأغراض الاحتلال الداخلي) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) إلى شمالها الشرقي (العباسية - القبة) يرمز إلى تطور الفن العسكري.

ولا شك أن الموقع الأخير، الحالي، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجي الأخطر. غير أن القصة

هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة، فقد احتوى المد العمرانى المدينة العسكرية - على ترامى رقعتها - إلى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكنى والمدنى لها شرقا نحو الصحراء. وإذا كان هذا عنصر تعويق فى نمو المدينة، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها. ولقد نضجت المشكلة - التى واجهتها عواصم أخرى كثيرة - بما يسمح بإعادة توقيعها ونقلها إلى الأطراف الجديدة.

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية، إن لم ترادفها تقريبًا. والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون بارديه - هى أساسًا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة. وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافى على أساس الإنتاج، بينما تتجانس فيها الأحياء السكنية

تمامًا، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة فى دولة تتحول إلى الاشتراكية. فنحن هنا إزاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الإقطاع والرأسمالية، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقى اقتصاديًّا واجتماعيًّا. بل إن المسكن مازال هو التعبير المادى الأخير عن الطبقة والمنزل هو المنزلة، والمكان هو المكانة.

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها، بل والجنسية والطائفة أيضًا، أى الأقليات عمومًا، وهذه لها مكانها فى عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة. على أن من الواضح تمامًا أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تمامًا من مدينة كالمدينة الأمريكية تمتاز أساسًا، كمدينة بلا تاريخ

وكمدينة هجرة، بالتنافر الاثنولوجي وتعدد الأجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعدًا لا يقل خطرًا عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية.

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم، يمكن أن نحصر الأحياء السكنية الفقيرة فى أقصى جنوب المدينة أقصى شرقها ثم أقصى شمالها، مع جزيرة كبيرة فى وسطها. أقصى الجنوب: فى أجزاء من الجيزة البندر، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب، مرورًا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة. أقصى الشرق: من الخليفة حتى الحسينية، مرورًا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية .أقصى الشمال: فى أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجي، ثم إزاءها فى امبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية. وثمة أحيانًا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات.

هـذه بوضـوح هى إما أحيـاء شعبية قـديمة التـاريخ، والمبانى عتيقة الـطرز، بعضها متهـالك أو آيـل للسقوط، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل أزقتها وحواريها الضيقة، كـما ترتفـع فيها كثـافة السكـان وحجم الأسـرة. أو هى أحيـاء عمـاليـة حـديثة التـاريخ ولكنهـا منخفضة المستـوى وقد تـرتبط ببعض البـورجوازيـة الصغيـرة من صغـار المـوظفـين أو الحـرفيين. وأوضـح من ذلك كله أن السكن يختلط فيهـا بـدرجة أو بـأخرى بـالصناعـة والتجارة كـما رأينا. وهى أخيـرًا وفى أغلبها، ولكن ليس دائـمًا تقوم عـلى الأرض المرتفعة ذات الكنتورات العالية.

وعلى طرف النقيض، تتوزع الأحياء السكنية الغنية، بدرجاتها المتفاوتة، فى معظم النطاق الأقرب إلى النهر من الضفة الغربيـة شمال الجيـزة البندر، ثم فى الجـزء الأكبر من جزيرة الروضة، ثم فى الجزيرة (الزمالك) ثم نعبر إلى جاردن سيتى وقصر الدوبارة، لنقفز بعدها بعيدًا إلى مصر الجديدة وأجـزاء كثيرة من الشمـال الشرقى إبتـداء من القبـة. وأبرز مـا يجمع بـين هذه الأحيـاء جغـرافيًـا أنها

باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع فى الأراضى المنخفضة على جبهة النيل.

وفى الأعم الأغلب تقتصر هذه الأحياء على السكن، فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية كالوزارات أو المصالح، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا وأخيرًا العجوزة. على أن السفارات والهيئات الديبلوماسية إذا عدت دليلاً على السكن الراقى، فهذا يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيًا، أما المتطوحة منها فتخلو منها، كمصر الجديدة.

أما اللاندسكيب المدنى السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة، ودائمًا فى عمارة عصرية حديثة. أما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضى البناء على الأرض السوداء حيث لابد من الحد الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية. وهنا نستطيع

أن نـرى كيف أن «جاردن سيتى» مثـلا اسم عـلى غـير مسمى، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتى» المعروفـة فى أوربا منذ هـوارد، فهى غابـة من العمارات الضخمـة أكثر منها كوكبة من الفيللات فى بحر من الحدائق. ولكن الفيللا تعود فتسود على الرمل فى مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الأفقى.

أمـا السكـان، فهـذه هى المحـل المختـــار للطبقـات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخـولاً وترفيهًـا وترفًـا. وقد حدثت هنا منذ الثورة عمليـة «تتابـع سكنى» تغير فيهـا نـوع السكـان. فقـد كـانت هـذه هى المـواطن المفضلة لسكنى الأقليات الأوربية الاستعمارية، مثلما كـانت المقر الطبيعى للأسر الإقطاعية والرأسمـالية والصنـاعيين من الوطنيين. ومع تصفية هذا وذاك، حلت بالتدريج صفـوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية، ممـا بدأ يخفف نـوعًا من حـدة تضاريس الـطبوغـرافيا الاجتمـاعية فى العاصمة.

فيـما بين النقيضـين، الأحياء الـرقيقة الحـال والغنية،

تنتشـر أو تنحشـر الأحيــاء المتـوســطة التى يتفق أنها متوسطة فى الموقع الجغرافى مثلما هى فى الموقع الاجتماعى والتى تتـألف غالبًـا من الطبقـات الوسـطى المعتدلـة أو العـادية من المـوظفين والمثقفـين أو التجار. فعـدا الجانب الخلفى من الضفة الغربية، تغلب فى فم الخليج وتسـود فى المنيـرة وكـل مـا حـولهـا وخلفهـا حتى حـدود الأحيـاء المتـواضعة فى شـرق المدينـة، ثم تغلب على كـل النطاق العـرضى الممتـد من الفجـالـة والـظاهـر وغمـرة عـبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسيـة.ثم فى قطاعـات كبيرة من ضواحى الشمال الشرقى. هذا عـدا القطاع الأكـبر والجنـوبى من شبـرا وروض الفــرج. ومن المـلاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة، قـومية كـانت أو ضواحى، تخترق عـادة هذه المنـاطق السكنية المتـوسطة (أو الفقيـرة) حيث تخلق على طـولهـا منـاطق مـوبـوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية.

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتمـاعية، وهـل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث؟.

لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة، بمعنى أن لكل طبقة منطقة، ولكل منطقة طبقة. وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى. وبتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى - المنيرة - القلعة.

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى إحداهما تستمد من الأخرى، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل إلى قمته، وحيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها والمسافة الجغرافية إلى أدناها، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالاً..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن أن نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ففى كثير من المدن الأوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسًا طرديًا للمستوى الاجتماعى والانتماء الطبقى، كلما زادت ارتفع، والعكس. ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة إلا جزئيًا (مصر الجديدة، المعادى، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة) وتعارضها أكثر (جاردن سيتى، والزمالك من ناحية، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى).

فإذا بحثنا عن احتمال آخر، كالأرض العالية والمنخفضة فى المدن الغربية الباردة، حيث الأرض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث - بالتالى - «العالى اجتماعيًا هو العالى جغرافيًا، والواطئ اجتماعيًا هو الواطئ جغرافيًا» وجدنا أنفسنا فى القاهرة إزاء قلب رئيسى وإن يكن غير كامل للقاعدة فشرق المدينة

الأعلى تضاريسيًّا يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى. ولكن يعود فيشذ قطاع كبير فى بسولاق والشمال (شبرا الخيمة وما حولها وامبابة) فهذه كلها أراض منخفضة وأحياء متواضعة.

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة؟ فقد لوحظ فى الغرب أن السكن الراقى يسعى إلى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة، طازجة غير ملوثة. وفى مصر الحارة، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدًّا وأن لها ثمنًا يدفع فى قيم الأرض أو الإيجار، وإن المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية إلى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية. ولكننا فى القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وامبابة وأحيائها المتواضعة فى أقصى الشمال، وإن كانت مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى مكشوفة للرياح «البحرى» منطلقة بلا عائق.

لا يبقى إلا أن تكون جاذبية النهر، فللجبهة المائية المنعشة فى مناخ حار، فضلا عن المنظر الطبيعى فى اللاندسكيب مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءًا كبيرًا من الحقيقة فى القاهرة : اعتبر معظم الضفة الغربية ثم الجزيرتين، فجاردن سيتى، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة ابعد ما تكون عنه. على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة، راقية كانت أو متوسطة، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه.. وفى الضفة الشرقية مثلًا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل فى انحدار مستمر من الراقى إلى المتوسط إلى الفقير، ولا نقول إلى سكن الموتى فى أقصى الشرق!

والخلاصة الصافية؟ لا شك أن كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيًّا، وليس فيها مفتاح أحادى. والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها كموضع ما بين الجبل

والنهر وما بين الصحراء والوادى، ولكن من الممكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الرياح البحرية، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس.

ذلك إذن وجه المجتمع القاهرى فى بيته الجغرافى أو بيئته الطبيعية. غير أنه إن حددت الطبقة ملامحه الأساسية، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية. ولقد حدثت تغييرات هامة فى العقد الأخير فى حجم وتوزيع الأقليات الأجنبية والجاليات الأوربية نتيجة «للخروج الأبيض» مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الآلاف، وإن قد كانت دائمًا أقل منها فى الأسكندرية بالذات.

ففى مرحلة الأوج فى الثلاثينات والأربعينات، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوربيين فى القاهرة تجمعهم فى النصف الشمالى منها، أو بالأحرى غيابهم تمامًا من النصف الجنوبى. وفى النصف الشمالى كان توزيعهم

أقرب إلى قلب المدينة، وكان مركز الثقل فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفى الاسماعيلية والتوفيقيـة، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان فى كثير من الشيـاخات. وحول هاتين النواتـين، وعدا الـزمالـك، كانت تجمعـاتهم تستمـر متصلة ابتداء من الفـرنسـاوى حتى بـاب اللوق ومن غمرة حتى شبرا، وفى كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان.

وأهم معانى هذا التوزيع هى:

أولاً: ميل طبيعى للأقليـات والجاليـات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتثار تمامًا بين الوطنيين.

ثانيًا: انجـذاب (غير مـألوف عنـد الوطنيـين ولكنه منـطقى للأجـانب) نحـو قلب المـدينـة التجـارى حيث يـربطون بـين العمـل والسكن أو حيث يـظهـر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ).

ثالثًا: يتبع توزيع الأقليات الأجنبيـة الإطار الـطبقى العام. فكانت العنـاصر الأكـثر غنى ونفوذًا منهم تـرتبط بـالأحياء السكنيـة الراقيـة كجاردن سيتى والـزمـالـك،

والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تمامًا عن الأحياء الوطنية الفقيرة.

رابعًا: ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديًا أو بصفة خاصة: الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعادى المنفصلة، واليونانيون والطليان واللفانتيون بمداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام فى قصورة الشوام خاصة).

خامسًا: وأخيرًا، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى أفريقيا أو آسيا. بل إن بعضًا من العناصر الأقل ثراء من الأوربيين اندمج تمامًا فى كتلة السكن الوطنى، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الأنجلوسكسونية تحايلوا على العزل السكنى المقنع من خلال الانفصال الجغرافى الطبيعى حين

نموا لأنفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا، وغزتها العناصر الوطنية. وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق الحضارى والجنسى بين الأوربيين والمصريين كان دائماً على غير ما عرف الاستعمار فى كثير من بلاد العالم الثالث، وإنه عجز عن أن يخلق فى مصر أى شبهة من «حاجز لونى».

أما من الناحية الدينية، فقد كانت هذه الجاليات الأوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة أو قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك القلب التجارى أو قريباً منه، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة، وليس فى الأحياء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات الوطنية. وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات، فمازالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الوسط التجارى: مثلا كاتدرائية الإنجليز بماسبيرو، كاتدرائية سان جوزيف بعماد الدين، عديد من الكنائس فى باب اللوق والفلكى وكنيس الإسرائيليين فى شارع عدلى.. الخ.

هيكل العاصمة
أقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم بـه أن القاهـرة، بتاريخهـا الألفى العريق، مدينة ناضجة مورفولجيًّا من وجهة جغـرافية المـدن، بمعنى أنها مـرت بمراحـل وأدوار عديـدة من التجربـة والخطأ، وإعـادة التجربـة والتصحيـح، حتى استقـرت واستـوت خطتها وبنيتهـا العامـة على أنسب تنضيـد وترتيب ممكن لبيتها من الداخل.

ومن هـذه الزاويـة، فالمفـروض أن تكشف القـاهـرة لدارسنها بسهـولة عن هيكلهـا الاساسى وعن الخـطوط العريضة فى مورفولوجيتها. غـير أن الواقـع أن القاهـرة مـدينة معقـدة نوعًـا من حيث الموضـع الجغـرافى الـذى يحتويها. فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منـع بصرامـة توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاهًا احاديًّا أو قـل نصفيًّا نحـو الشمال والغـرب أو الشمـال الغـربى،

وبذلك حد من حريتها فى الانطلاق نحو النمط الدائرى وحصرها فى نمط مروحى بالتقريب.

ونقول النمط الدائرى لأنه باستثناءات ليست قليلة الأهمية ومع تحفظات معينة فإن المدينة أى مدينة حين تترك لنفسها فى بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فإنها فى الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن تنمو حول قلبها، كجذوع الأشجار، على شكل حلقات متتابعة نحو الأطراف، وتكتسب محيطاً دائريًّا أو شبه ذلك. والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائى القائد أو الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه ودينامياته التى طالعنا وحللنا؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق، على الأقل منذ القرن الماضى، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة طبيعية صارمة. ومن الناحية التاريخية، وعبر العصور الوسطى، فإن أحضان المقطم المباشرة التى نشأت فيها

هى بطبيعة الحال «النواة النووية» للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى، خاصة الإسلامية منها، بسيطاً فى جوهره يتركز - كما يلح علينا ديكنسون - حول السلطان: فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها.

وشيء من هذا توحى به القاهرة العربية الإسلامية. فدائمًا منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع، كان مقر الحكم لصيقاً أو يكاد بسفوح المقطم فى الشرق، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة، وأحيانًا ملاعب ومتنزهات.. الخ

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنيًّا بأن نقول إن نمط القاهرة العربية المورفولوجى كان حلقيًّا، وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم. وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة شيكاغو المشهور فى دراسات المدن، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظامًا نصفيًّا وليس دائريًّا كاملاً.

ولكن قاهرة اليوم أشد ما تكون تعقيدًا بالمقارنة. فمنذ القرن الماضى أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب. ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد على ولكنها تسارعت بعده منذ إسماعيل خاصة، ولم تكف منذئذ حتى الآن. مقر الحكم، مثلاً، كان القلعة أيام محمد على، ولكنه هو نفسه

بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة فى منطقة الأزبكية، إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائيًّا إلى عابدين. هذا مجرد مثال دال، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان: من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وانسجتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل.

ولا شك أن أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة، كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين، هى هجرة القلب التجارى المركزى. وهى نتيجة حتمية. فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة «عاصمتها»، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تمامًا. وكما أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية، ينبضان، معًا ويتأرجحان معًا، فكذلك قلب المدينة: يرتبط وثيقًا ويتذبذب حثيثًا مع حدود المنطقة المبنية، كلما اتسعت حدود هذه، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه. هكذا

القاهرة: كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا، نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها.

ومن السهل ربما أن نتتبع حركة القلب التاريخية هذه من الأزهر والموسكى فى مطالع القرن، إلى العتبة والأزبكية بعد ذلك، إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية وما قبلها. وبمزيد من التحديد فقد كان كليرجيه فى الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول شارع عماد الدين. ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحركة إلى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حرب (فؤاد وسليمان سابقًا)، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية.

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة، اعتبرت

هجرة فندق شبرد من الأزبكية، والجامعة العربية من الداخل، إلى النيل، ثم قيام الهيلتون، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع. كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما واللهو وشرنقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها.. الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الان..

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطئ النهر، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس إلى مدينة فيضية، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدمًا فى ضفة وقدما فى الاخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد.

ولا شك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم، والمتفجر أخيرًا، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر

المـزيد من النمـو والانسياح. وهـو أيضًا يحقق النـظريـة الأصـولية من ان القلب يـزحف نحو الاحيـاء السكنيـة الراقية. كذلك فانه يدل على أن القلب بـرقعته المـزدحمة الحـالية بـدأ يكتظ ويضيق بمؤسساتـه وأجهزتـه الكثيفـة والمكدسة، وبمثل ما أن بعض هـذه المؤسسات بـدأت هى الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر هـدوءًا واتساعًـا لأغراضهـا. خـذ مثـلا دور الصحـافـة الكبرى فى القاهرة: تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عـين القلب إلى هوامشـه، ابتداء من قيـام دار أخبار اليوم فى شارع الصحافة، إلى انتقال الأهرام أخيـرًا جدًا إلى شارع الجلاء. ومن قبل يلاحظ المـوقع الهـامشى من القلب فى بقية دور الصحف: الجمهوريـة تجاه الأزبكيـة، الشعب فى القصر العينى، الهلال فى المبتديان.. الخ. كذلك مـرافق الادارة المركـزيـة، لم يعـد القلب الإدارى يتسـع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدًا، وأحيـانًا خـارج القلب تمامًا، كوزارة الزراعة بالـدقى من قبل ووزارة الإصـلاح الزراعى من بعد، وكعـدد آخر من الـوزارات والمصالـح والمؤسسات الحكومية.

هذا، واذا كان لنـا أن نحَدس المستقبـل من مؤشرات الحـاضر، فـان ضغط القلب من أجـل المكـان سيفـرض نفسه قريبًا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجـزيرة التى هى حقيقـة استغلال سيئ ومسـرف لموقـع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى، ولكنه صراع وظيفى لا يمكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب فى النهاية. وقد لا يكون قيـام فندق عـالمى تجارى ضخم - شيـراتون أو سفنكس(٢) - عـلى رأس الدقى السكنى فى قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة، بلا مغـزى ودلالة عـلى هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتًا.

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة، التى تبدو اليوم ناضجة تمامًا لجـراحة كبـرى فى إزالة العشش، هى بالقوة الاحتياطى والرصيد الطبيعى لتوسع القلب فى بعض جوانبه فى المستقبل. وهى قد بـدأت بالفعـل تتلقى أو تستشعـر وقع بعض فـروعه وامتـداداتـه عـلى طـول كورنيش النيل فى مـاسبيرو (مبنى الإذاعـة والتليفزيـون مثلا.. الخ)

هـــذا عن حـر كـــة القلب غـربًـــا، والمهم والسؤال الآن :ما الذى حدث للمنطقة التى هاجـر وانحسر عنهـا القلب بـالتدريـج؟ انها ببساطـة - ولكن ببسالـة، إذ أن المقاومة تستمر عقودا - تفقد بالتدريج أجهـزة وعناصر التجـارة والنشـاط التجـارى التى هى مقـومـات القلب وصفته الاساسية. فالقلة من محـلاتها ومؤسسـاتها الاكـثر طموحا والاقـدر على التكيف الحـديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخـذ لنفسها فيـه فروعـا عصريـة، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادهـا ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهـور واسع الـدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات، وقـد تتحول الى مخازن وموردين للجملة أو متاجـر محلية للحى أو حتى للجيرة، وفى نهاية الدورة قد تصفى اعمـالها فـإذا بمبانيها ومنشآتها تتحول إلى استعمالات جديدة، سكنيـة أساسا، أو قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحـرفيين أو الممـولين.. إلـخ. وبعبـارة اخـرى، تتحـول المنطقة التى تراجع عنهـا القلب القديم الى مجـرد اطراف وهـوامش أو رقـع من جسم المـدينـة العـادى بحلقـاتـه

الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى.

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة، وتعد قلبا للعملية الشائعة فى ديناميات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية. فالقاعدة مع نمو المدينة ان يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة، ولكن التحول هنا فى المناطق الشرقية من القاهرة والتى كانت القلب القديم، ثم على العكس بتراجع وانحسار القلب، وبالتحول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة.

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم فى هذه القطاعات، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفى القطاعات الأخرى من المدينة، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب

وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التى كانت فى العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائرى بصورة عامة، الا أنه هنا منبعج مختنق فى شكل مروحى.

هذه العملية كلها لا شك بدأت فى القرن الماضى حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها، ولكننا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة الا فى الاجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج. هذا ويلاحظ فى تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير، وخاصة فى قاهرة ما بين الحربين، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة، مثلما نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير... الخ.

وهذا كله أتى لحساب القلب العصرى «الاوربى»

الحديث، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج. والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات أفلاس كثير من محلات الموسكى والأزهر.. الخ فى تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسكى الى شارع طلعت حرب، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير. وقد يمكن أن نعتبر العتبة هى الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث فى قلب القاهرة التجارى. وفى الوقت الحالى، أصبح القلب القديم - الموسكى والأزهر والغورية.. الخ- يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم فى كل شىء..

وعلى الفور، لن يخطىء أحد أن ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى: قلب جديد نابض متنام، عصرى حديث الطراز، فى الغرب، وقلب قديم عتيق الطراز، آفل وفى انكماش مطرد، فى الشرق. وهذه

الثنـائية، التي يعـرفها قلب كـل مدينـة هـامـة فى العـالم الثالث، تلخص وترمـز الى الثنائيـة الحضاريـة القاعـدية التي تميز هذا العالم الثالث منـذ عصر الاستعمـار الأوربى والاحتكـاك الحضـارى مـع الغـرب. ومن الـطريف فى القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بـين الموقـع الجغرافى والمـوقع الحضارى داخل هذه الثنائية: فالقلب الشرقى القديم فى الشرق، والغربى الحديث فى الغرب! على أن هذه الثنائية مرحلية فى جوهرها وان طال الامد، ولنا أن نتوقع، ولكن ليس قبل عقود عـلى الاقل، أن يـذوب القلب القديم فى الجديد لأنه نهايـة المطاف مـع اكتمال التحـول الحضارى والتقدم المادى.

وهنـا وفى النهايـة تفرض نفسهـا مقابلة لهـا مغـزاهـا وطرافتها، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية ومـا رأيناه من قبـل من تجانس بشـرى فى السكان. فـاذا كان قلب القاهرة يلخص التنـافر الحضـارى، فان تـركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى. وهذا وذاك عـلى العكس تماما من المدينة الأمـريكية: تنـافر جنسى وبشـرى حاد

وصارخ، وتجانس حضارى إلى درجة التنميط الممـل ربما. ولعلنا لا نغالى اذا قلنـا فى هذا الصـدد ان القاهـرة أقدم عواصم العالم القديم ترمـز له وتلخصـه مثلما ترمـز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كـواشنطن أو نيويورك...

الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذى شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات. يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبنى، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تتشبث بحضنها، فالأهرامات العجائب التى أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى إذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الأربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير، وتلال المقطم التى جاءت منها الأهرامات

والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الأحياء القديمة، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابًا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى. أن أهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب، لا مجرد زينة..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة. عديدة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلوق الجافة من العطش الشديد. وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيرًا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.

والصحـراء كالبحـر، هيهـات أن يقـال عنهـا خـلاء محصن، بـل أنها ملتقى قوى عـديـدة، وكـما ربط البحـر ما بين الجزر اليونانية في العهـود الخوالى، فـان الصحراء ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريـخ فهى وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى مـوقعها بـاهتمام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويـل فعند هذا الموقع الذى يزداد فيـه النيل رحـابة ليضم بـين ذراعيـه أرض الدلتـا، وهى على شكـل مـروحـة، أقـام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهـرم المدرج فى سقـارة، وهو أقدم بناء من الحجر فى العالم كله. لا يزال يـطل على مقابر منف، تـراه بالعـين المجردة من أعـلى العمارات فى القاهرة) وقـد أقام الفـراعنة أهم مقـابرهم فـوق هضبة الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميـدان التحريـر - إلا مسـافة ٤٠ دقيقـة بالاوتـو بيس رقم ٨. ومدينـة عين شمس - هليـوبوليس الآن يـربطهـا بالقـاهـرة قـطار المترو - كانت لها سمعة عالمية فى العلوم، ولكهنتها فضل

على هيرودوث وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائرى القاهرة تأثيرًا عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فالقاهرة اليوم - شأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشرى، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى إسرائيل) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم فى الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» فى شرح عقيدة التجسد الإلهى، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون فى مصر - وهى مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هربًا من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة

أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام «اللوجوس» وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على افق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية. إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى. هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التى تتجه إليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثوى الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية، فإن العين لا تلحظ على هذا الأفق إذا ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرئبة للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم.

وللقاهرة – لأنها مدينة صحراوية – ثروة نباتية تنفرد بها: زهور لا تنمو فى الشمال إلا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل - أطول أنهار العالم القديم - يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.

الفصل الثانى

القاهرة.. بنت النيل

منـذ أن امتنع ورود مـاء فيشى للقاهـرة، لا مندوحـة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفًا عـلى ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهـو نعمة فيهـا الحياة، فـالناس تتشبث بهـذا النهر وتلوذ بـه، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدًا عن شريط

الماء وضللت السبيل فستموت عطشًا إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسى عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلى، فاقترن النيل بخضرة يختص بها - اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذى لا يلحق النيل فهو إباء الثبات، فإن مجراه قد خضع ككل شىء فى الوجود - لتصاريف الزمن. والخضوع هنا تنظيمى، للقضاء على نزوات النهر فى الماضى. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو مقياس النيل، عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل فى الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة، فى وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى. و«الذراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزومًا وأجل خطرًا من التكهنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه فى المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدب..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع فى أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه فى احتفال يسمى «وفاء النيل». أما فى السنين التى يخشى فيها أن لا يفى النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقى وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها – ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود – فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ فى كتابه المقدس – ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة فى القديم يحببون الفيضـان من دموع إيـزيس وهى تبكى عـلى أوزيـريس، وكـانت لهم طقـوس تتصف بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهى رحيمة، إنها طقوس زفاف النيل العاشق وعـروسه «عـروس النيل» كانت فى القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول الـذى نصفه إنسـان ونصفه ثـور، ثم أصبحت العروس دميـة فى حجم فتاة.

والآن تتولى السدود تنـظيم النهر، فلن يتكـرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبـه، بشكل درامى، غمـر الماء فـوق شواطئه الطينية العامرة بـالفيران. لم يعـد يتألف مـوكب الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل فى أوائل الصيف فإنه علو قليـل، حينئذ يشكـو أهل القـاهرة من الرطوبـة تضاف إلى الحـرارة، فيهرب الأغنيـاء منهم إلى الاسكندرية، رطبة هى أيضًا ولكنها اندى نسبيًا، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضاً من كثرة البعوض.

لقد بدل النيـل مجراه عـلى مر الـزمن فتبدلت أيضًـا

مـرافقه، فـأقدم مـوانئ النيـل عـلى الشـاطئ الشـرقى للقـاهرة (أمـا منف فهى على الشـاطئ الغـربى) كـانت بـالقرب من مـوقع بـابيلون الرومـانية إلى الجنـوب من القاهرة بنت اليـوم. وفى القرون الـوسطى كـانت الميناء هى «المقس» بالقرب من المـوقع الـذى يحتله الآن فندق الكونتننتال وحديقة الأزبكيـة، وحى المتاجـر والملاهى – بطابعها العصرى – الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان أرضاً عامرة بالبساتين و الحدائق فى أوائل القرن التاسـع عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف. وفى القـرن الثامن عشـر كانت الاض التى تحتلهـا حديقـة الأزبكية مكـاناً لبحيرة متسعة (وقـد تقلص حجم هذه الحـديقة عـلى أثر تخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيـرة فت أرضهـا بحيث استطاع نـابوليـون أن يستعرض نها جيشه. أما ميدان باب اللوق – كما نعرفه اليوم – بسـوقه ومحـطة الضاحيـة حلوان – فقد كـان فى القرون الوسطى مرفأ القاهرة – بابها من ناحية النهـر، فلما بدل النيل مجراه اختفى «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من

النهر بجزيرته «الجزيرة الوسطى الآن»، ثم اندمج حي بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينهما - كما ضاعت شلزى فى لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهرى للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك فى اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضفى - فعلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى انشأها الامبراطور الرومانى تراجان لربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام

هذه القناة إلى أن جددها عمرو بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن – وكذلك شارع الكورنيش – هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقًّا أن أسماء الشوراع اسرع من مجارى الأنهار فى التبدل.

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر – كالبسفور – بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقى فيها بثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميراميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنـات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المـرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم الماء على جـانبى الفلوكـة. إن شكلهـا مخلد عـلى صفحـة النيـل، تنسـاب أمـام المبنى الحــديث لمستشفى قصـر العينى إلى كوبرى الجامعة، وفى أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخـر، نهر دجلة، واسمه فى اليونانية تيجـريس بمعنى النمر، فـدجلة نهر مفترس عنيف يطغى عـلى الأراضى فى أسوأ مـوعد، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعـد لفيضانـه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً - نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمـل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، وريـاحه الغـالبة عليـه تهب من ناحية هـذا البحر فى الشمـال فهى تسهل عـلى هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والرقة فى بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هى العوامات، قميئة وإن تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد

صحـراوى ملك البلد كله. ويرجـع الفضـل فى اكتسـاب القـاهرة لأهميتهـا إلى أنها واقعة حيث يتفـرع المجـرى الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشـر شمالا كـالمروحـة لتـروى أرضا هى مضـرب المثـل فى الخصب. والقـاهـرة ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيـرة أيضًا فى يـدها مقـاليد أمـة بلا منـازع، ولكن أهلها خليط من أجناس عديدة..

الفصل الثالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة[1] متعددة الألوان، حتى فى القرون التى كانت فيها «دار السلام» مفصولة عن «دار الحرب» - أى البلاد النصرانية. لم تنقطع

(١) كلمة مدينة هى من الكلمات التى حار اللغويون فى معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى فى كتابه «اللغة العربية عبر القرون» أن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر انها الميم ليست أصلا وأن الأصل هو دين أو دان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الاثبات العملى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان فى العربية والعبرية والارامية هو القاضى و«بيت دين» فى العبرية هى محكمة كما تعرف العربية «الدائن» و«المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون وما يتعلق به =

أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). هذه هى حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيها بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق، وكان هؤلاء فى وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الأبواب المنيعة). وإلى جانب أولئك جميعًا تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عددًا وتدفقًا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادى تجرى فى عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها – طابع تعدد الألوان كما كان يبدو فى معاهدها العلمية

=من ضوابط والتزامات. أما الصيغة ذات الميم فظهرت فى الارامية بمعنى وحدة قضائية، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعًا وحدة قضائية. وعندما انتقلت الكلمة إلى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة فى العربية.

وفى خاناتها التى تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم - وان كانت جديرة بالملاحظة - التى أوردتها ناشرة كتاب «دليل المسافر» سنة ١٨٩٦ عن دار موراى للنشر فى وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الخلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلحظ العين أنه صلب متين البنيان)..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصرى على الشرق التليدى، وإن كانت الاضافة الجديدة لا تمثل أفضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوربيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب

الأرض فى الليفانتيين نسبهم المصريون المضيافون إلى الشام وهى كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب فى مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحنتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم، ولكن رصيدهم فى البنوك كان يتمتع دائمًا بأطيب صحة..

وليس اسم العاصمة فى اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمصير - عن خطة أو عفوًا - هو السياسة المتبعة، فانحسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسى، وما جذب أيضًا هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب فى أواخر عهد فاروق قد سقط فى وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة

١٩٥٢ (وقد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى «التيرف» الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجًا أيضًا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففى تلك الأيام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبى ترد لها بالطائرة من باريس، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة. لم يعد فى القاهرة الجديدة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء، ولا قمم تشمخ فيها الأناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العين لا تخطئ أن تلحظ تباين الأنماط بين أهل القاهرة، فالمدينة فى ذاتها - بتعدد أحيائها وأحوالها - تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى.

الفصل الرابع

القاهرة.. الطابع البلدى

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الأهرام[1] والأخبار والجمهورية - تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرًا مخلوع العذار،ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب في جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفًا من الجلد، وعلى رأسه عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش

(١) جريدة الأهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥. وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف.

الأحمر – وكان قد استحدثه الأتراك اقتباسًا من شمال أفريقية – قد اختفى لاعتباره رمزًا للتخلف، فلا يتشبث به الآن إلا السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل إليه الأتراك فيما بعد «البيريه» التى فرضها أتاتورك على شعبه، وهى غطاء من القماش للرأس ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا، لم تأخذ بها القاهرة تقليدًا للأتراك، فأغلب رجال العاصمة، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية.

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو كاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة «البلدى» وهى فى اللغة نسبة إلى «بلد» وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو فى نظر السائح

الأجنبى الهياب شخصًا متنافرًا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصًا يثير التوجس، أما الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابلته «وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة أو فى مقهاه المألوفة» يجدون ابن البلد هذا - ملح الأرض - شخصًا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخًا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه. إن أساس نمط معيشتهم قد رسخ فى أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق أكوام النفايات..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف «العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين» وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة، ففى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد، ما يترتب على نمو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر

للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الـرطيبة، ممـا أدى إلى تزاحم المساكن واختفاء العنايـة بها. وحـين نشر لـين بول وصفـه للقاهـرة بعد سبعـين سنة من التـاريـخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بإفاضـة عن الأحياء القديمة على النحو التالى:

«بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك فى هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصـرى قد وفق أبـدع توفيق فى الـوفاء بـاحتياجـات العيش تحت سماء الشرق، فـإنه جعـل الشوارع ضيقـة يسقط عليها ظل المشربيات البـارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كـانت الشوارع فسيحـة كما هـو الحال فى مدن أوربا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مـع إحاطتهـا بـأفنية خـلاء مزروعـة بساتـين وحدائق، فحـين لا هواء تصـير حـرارة الحجـرات فى الصيف غـير محتملة، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبنى لك بيتاً لا تـطل منه عـلى جارك من خـلال نوافـذه ولا يطل هـو عليـك من

خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهى لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى عالى الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات - أو قل هذه الستائر الخشبية - وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء».

وما بقى الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف - مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ «متحف جاير أندرسون». وفى القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكى: بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة - ذلك أن حجاب النساء قد سقط لزومه فى حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل فى هذا التحول إلى

نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الآف من النساء يعملن مع الرجال جنبًا إلى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية، وهناك فى الأزهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الإسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم، فى قمته جامعتان فى القاهرة، تقوم بجانبهما أيضًا جامعة أمريكية. وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية، وبعضهم يولى ظهره للدين..

دع عنك هذا التحول الفكرى، فإن تزاحم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلًا، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول. إن نظام

الحجاب كان شرفًا مقصورًا على المدن. وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الأجساد فى القاهرة - أكبر مدن أفريقية - لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيلًا بعد جيل فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم بمثابة الإسفنجة، تمتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف، وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب فى القاهرة مزيدًا من السكان. كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤,٨٣٨، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة.. أى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحياة أولاد البلد، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرًا صيفيًّا له، وكانت الكتب المعدة للسائحين إلى سنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب فى الأمسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت

أن تشاهد الريف فعليك أن تمضى إلى جهة أخرى: غربًا إلى الأهـرامات أو جنـوبًا إلى حلوان، لأن شبـرا ذاتهـا أصبحت أشـد زحامًـا من إيست هام وهـارلم أشد أحيـاء لندن ونيويورك زحامًا، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كـانت شبرا لم تعـد تصلح لمن يريـد التنزه فى الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيـارة بسبب أن فيها كنيسة «سانت تريزا» وهى إحدى المزارات العجيبة الموجودة فى العـالم، أخذ فى إنشـائها فى العقـد الثانى من هـذا القرن طـائفة من الكـارميليت تجمع بـين الانجليـز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعًـا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار لـلأمهات المصـريات، يـدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسمًا للقديسـة وجدران مـدخل الكنيسـة منقوش عليهـا نذور بأكثر من اثنى عشر لغة من بينها نـذر لرئيس وزراء سابق فى مصر.

و«العبـاسية» حتى كـذلك من الأحيـاء السكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت عـلى

الأراضى البراح الممتدة إلى هليوبوليس والمطار فقصر حبيب سكاكيني، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الأولين لاسم صاحبه الليفانتي ولقبه، كان فى الأصل معدًا لإقامة خلوية، فأصبح الآن تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم إلى درجة الاختناق. وحتى فى هليوبوليس «مصر الجديدة» تمتلئ الشوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الأحياء السكنية فى القاهرة القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفًا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهى، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفًا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل

السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، ولهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشى هذا النوع من الإجرام المعدوم الهدف الذى هو فى بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية فى القاهرة جديرة بالزيارة فى جولة ستكشافية فهى بقايا لا تزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية-هو أن تسعى إليها مشيًا على القدمين، وستكون آمنًا مطمئنًا، ولكنك قد

تتعـرض لاشتباكـات جدليـة إذا أبـرزت آلـة تصـويـر لا تـرحم، فإنها قـد تثير الغضب والاحتجـاج من جراء الشعور بأنك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانتـه المقـدسة فى الشـرق - لتقوم بـدور «البصـاص» الـذى يتصيـد عجائب القـارات كما يتصيـد هاوى الفـراشـات أنـواعها العجيبـة وإن هذه الأمثلة التى تجمعهـا لعجائب السلوك الإنسانى ستعرضها على أصدقائك فى بيتك حـين تعود إليه فى جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء النـاس أصحاب القلوب الـطيبة قـد بـدأوا يعيشـون فى مـأساة انتبـاههم إلى أنهم متخلفون، وأن اعتمـاد كيانهم عـلى الدروب الضيقـة والمعيشة والعمـل نشرًا تحت قبـة السـماء قد يعـد من الوصمـات. والـطبقـة الـوسـطى فى المجتمع هى التى غرزت فى أذهانهم هذا الخـاطر أكـثر مما غرزه الاجانب. وفى الحق أن خير نتاج مصـر هو الـذى ينبـع من هذه الـدروب الضيقة، فهنـا حيويـة هيهات أن يكون لها قـرين، وحماس وتـطلع، جديـران بالإعجـاب، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوًا.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الـوسطى ينـظرون إلى

هـذا الطراز من المعيشـة نظرة ازدراء، فـالروائى نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته «بـين القصرين» وهى ثلاثية تتتبع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها، وكـذلك يـوسف شاهـين وهو من ألمع المخرجـين فى ميدان السينـما بمصر قـد صنع فيلمًا عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتـدى الجلابيـة وجعل حوادث الفيلم تدور فى محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجى

وأغلب أولاد البلد فى القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة «أفرنجى» هى المقابلة لكلمة «بلدى». إنها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا فى القرن الخامس وأطلق فى الشرق على الأوربيين عامة، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى، أو كل ما هو أجنبى. وكان التفرنج يعنى فى البدء - علاوة على لبس البنطلون - الرقص الأوروبى على أنغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال

بـدلاً من لافتات الخط العـربى وأثاث من طـراز لـويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجـار بلدى! - ويعنى فـوق ذلـك أيضًـا إيـداع النقـود فى بنـك لا فى شكمجية كان هذا فى البدء، أمـا الآن فقد أصبحت جميـع هـذه الأشياء من صميم الحيـاة فى القاهـرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القـاهرى (وهـو مسلم فى تسع حـالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيـغ فى الأصل ليـطلق على كـل من هـو مسيحى أجنبى وإن شمـل أحيـانـًا القبـطى: المصـرى المسيحى أيضًا. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنبًا إلى جنب فى وئـام أشد من وئـام المسيحيين والمسلمـين فى قبـرص، إلا أن لكل منهما حسـابًا مختلفـا للآخـر. قد يكـون نمط حياتهما متشابهًا، ولكن «الخـواجة» الـذى كان من قبـل يتميز بسلطان اكتسبه إبـان هيمنة الغـرب المسيحى على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجـة» ذاتهـا.- وهى من ألقاب التكـريم فى لبنان - أصبحت فى

مصير تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبى أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجة» فإن كلمة سيد فى مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» فى إنجلترا.

والطبقة الوسطى هى العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هى اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثًا من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة فى النمو، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات فى القاهرة عن ٧٠ ألفًا نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومى أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناسًا قد وضعوا قدمًا - على الأقل - على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة فى كل الأحياء السكنية، ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة فى الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقى لها أقارب فى القرية أو فى المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجى. والزمالك هى أكثرها عمرانًا وأشدها افتقارًا إلى السمة الذاتية وهى تمتد مسافة ميل ونصف فى شمال «الجزيرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبى من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفًا على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهى أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضًا تعاليا، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفي أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصري متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعوني القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًّا فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًّا في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت - فيما يبدو - بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذي كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملًا) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية فى الحال.

والطبقة الوسطى غالبة أيضًا على الشاطئ الغربى للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها - وهى الجامعة - وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصرى شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها فى القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذى يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزنوج. والطبقة الوسطى فى

القاهرة - كالشأن بها فى كل بلد - هى منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجل الذى فقد ظله» - وتجرى حوادثها فى حى قاهرى - يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميمًا بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرثاء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبى إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية - ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضى وأزياءه. وقد وصف فتحى غانم حادثًا بقى فى ذاكرته منذ طفولته كحادث هام، حين تحدث عن أبيه القروى الذى كان أول فرد فى الأسرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفى عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبى أدرك أن هذا الكى فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صوابًا أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هى التى تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أى المبانى يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو مترًا فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقًا رئة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بـأنه من روائـع المعمـار الإسـلامى الحـديث، ولكنـه يشبـه سلة مهملات الورق، ضخمة متعاليـة، وفى سطحـه مطعم دوار يتحرك على عجـلاته الصغيـرة تحرك قـطار بطىء جـدًّا بحيث أن الذين يتناولـون فيه – وسط جـو من المرح – وجبة كاملة (حساء – لحم – فاكهة) إذا رفعوا أبصـارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنـظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.

الفصل السادس

القاهرة.. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل أعوام أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى فى المبانى والشقق الفخمة إلا قليلاً، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الأمور.ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر إلى الخارج معظم الأرستقراطيين والإقطاعيين، وفضل من كان منهم من أصل تركى، دون أن يكون منتميًا إلى العائلة العثمانية المخلوعة، الإقامة فى تركيا - واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو - كما فعل الملك السابق فاروق - مونت كارلو. وفضل البعض البقاء بعيدًا عن الأضواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فى حالة الأمراء

والأميرات السابقين) أو بما بقى لديهم بعد التأميم والمصادرة. واستمر البعض فى شغل القصور الجميلة التى تحوى أثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل. وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعًا فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمى أو من قطع أشغال العظم القبطية التى يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الأثرية والأنتيكات، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لأفواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه إلى إحدى الجمعيات الخيرية القبطية. ويعزف أمير سابق أنغام شوبان فى الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضًا. ولا يتصور كثير من هؤلاء الأرستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر، فهم مخلصون لها بحماس يعسر دائمًا إدراكه ممن احتلوا أماكنهم..

ويسكن فى جاردن سيتى أثرياء الأقباط، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليزية وتخلق بالمعيشة الإنجليزية، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضًا وأنت تزورهم فى غرف مكاتبهم.. التى رصت جدرانها بالكتب عندما

يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الأفواه فى عالم الأدب أو عن «زيد» أو «عمرو» الذى كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات فى هامش الحياة.

وقد نبذ الأقباط الأسماء الإنجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفرى وسسل، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل «توفيق» أو حتى «جمال» وهى مدلولات غير محددة تنفع للمسلمين والأقباط على السواء.

الفصل السابع

القاهرة.. الطابع النوبى

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع فى القاهرة مع أن آثار بلادهم هى محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حى قد لا تلحظه عين القاطن العابر فى فندق هيلتون أو شبرد، وأنا نفسى لم أنتبه لوجود هذا الحى العجيب إلا حين كنت أقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة

وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشـرفة وأطللت منهـا رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمبـانى المجاورة، إذ هى تزيد فى ارتفـاعها عن سـتة طوابق، وتتكـاثر فيهـا. تقليـداً للفن الحديث زخـارف من المعدن والجص أى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد فى لنـدن. وجدت من تحتى بط يبطبط، وأغنامـاً تلوك حزمـاً من البرسيم، ونسـاء فى مـلابس سود تمـد أيديهن إلى أقفـاص الدواجن لتخـرج بفطور عيالهن (والبيض فى القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك أربع منها لكى تصنع لك عجة). فى كل قريـة من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون – وهم فى مساكن القاهـرة من علامـاتها المتميـزة – فإنـك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بواباً – واحدا على الأقل – جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجـين، وفى أغلب الاحيـان يكون مـع رفاق لـه، والنوبيـون يحبـون المؤانسـة. إنهم يأتـون من هـذا الـوادى الضيق مـا بـين أسوان وشمال السـودان، وقراهم تمتـد طولاً، النيـل هو شارعهم الرئيسى، بيوتهم فسيحة، نـظيفة، طليقـة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من بـاب عليه

قفـل، فليس هناك سـرقـة، وليس هنـاك زنى، ويعتـرف القاهريـون بأمـانة النـوبيين ويـرونها سبب استخدامهم بوابين. ومـع كل هـذا فقد احتجت الحكـومة السـودانية لدى منتجى السينما المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنـة السمراء فى دور الخـدم دائماً ولم يـظهروهم سادة مطلقاً.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسـامح. قـد يحدث اشتباك بين خـواجه ومسلم وبـين مصرى حنـطى اللون وآخـر من أبناء السـود، ولكن لا يكون هـذا الاشتبـاك بسبب نفـور جنس من جنس. وبعض دروب القـاهــرة تشبه حى هارلم فى نيويورك، ولكن بـدون حزازاتـه، وإن كـان السودانيـون يتجمعون فى مقـاه خـاصـة بهم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بـل إلى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى، شـأن المقهى التى تجدهـا فى كل مـدينة وقـرية كبيـرة فى وادى النيل فيهـا أبناء القـاهرة المغتربون عنها.

الفصل الثامن

القاهرة.. منازل الأموات

وفى أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم - تلك الخرطة المقسمة دروبها تقسيماً هندسيًّا تتبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشى فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هى أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفى كل منهما نصب مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة، عزلهم الموت عن الإناث المدفونات فى قبور الحجرة الأخرى. ويسجى الميت على لوح من الحجر، مكفناً ولكن بلا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذى يضم رفات سلالة محمد على، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة.

وأعرف فتى مصريًّا ولد ونشأ فى أمريكا، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته، وكان لم يألف بعد عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له فى اهتمام خاشع انه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختًا له ماتت فى طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة فى قبر الأسرة طوال السنين وتزار هى أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهـل منف من قبل أربعـة آلاف سنـة، فـإن فى مـدينـة الأموات التى وصفتها ما يكفى للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغـريق يدفنـونهم خارج المـدن على قـارعة الـطريق، أما الـدين الإسـلامى فمن سنتـه دفن الميت فى قبر لاحد لبساطته حتى إنـك تستطيـع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مـع أنه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعـد الآن فى الريـاض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره).

وتنفرد القاهـرة دون بقية عـواصم الإسلام بنـظامها هـذا للمـدافن ومـا يستتبعـه من واجبـات، ففى الأيـام المشهورة على مدار السنة - كـأيام العيـد الصغير الـذى ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الـذى يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة - تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنـه خارج إلى نزهة، متلهفًا على زيـارة أفراد أسـرته الـذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديـدة فى العيد أو التمتـع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفـراعنة

فى مـواسمهم أيضـا، وان اختفت اثنتـان من عـاداتهم – الآن لا تحنيط للمـوتى، والدفن فى الضفـة الشرقيـة من .. النيل حيث تشرق الشمس، أمـا عند الفـراعنة – اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون – فقد كان الميت يدفن – بعـد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة – فى الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغـائرة فى الصخـر إلا محاولات لتضليـل هؤلاء اللصوص. وأهـل القاهـرة يعانـون منهم اليوم أيضاً، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضـاً، قـامت متاجـر صغيرة تبيـع الشاى والأدوات المـدرسية. وبعض الغـرف المبنية فـوق المقابـر قد اتخـذهـا النـاس مساكن لهم، ولكن بالرغم من قوة الحـرس وبالـرغم من الغول الذى تقول الأساطير إنه يسكن فى ظـلام المقابـر، فإن كثيراً من الأسر تعمل المقص فى أكفان موتـاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.

الفصل التاسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهـرة عن بقية مـدن أفريقيـة (وعن سائـر مدن آسيا بـالنظرة ذاتهـا) بأنها ظلت منـذ مطالـع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًّا كان هو، فإنـه متقارب من الـدولة الحـديثة. وليس من قبيـل الإطـراء خلعنـا هـذا الوصف عليها، فالدولـة الحديثـة تجمع بـين ما هـو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قـاضيًـا ومستشـاراً و٣ سجـون بهـا ٨ آلاف من النزلاء و٦٥ مستشفى بها ١٣,٠٣٢ سريراً وما يزيد عن ١,١٠٠ من شرطة المـرور، ليقال إن هـذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخـذ بالنـظم الحديثـة،

وهى أيضاً فريدة فى أنها تمثل مجتمعاً شرقيًّا فى صراع دائم مثمر مع الغرب، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها إنها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير فى قلب الأناضول، ولا أحد فى مصر (اللهم إلا فى شهر أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر إلى ذهنه التخلى عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف – ما بين نابليون وجمال عبد الناصر – تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها – تفخيماً لها – كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد الفرعونى – اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد على - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثمانى، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة فى تحطيم المماليك فى مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التى اندمجت فى القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا - لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون إلى باريس. ولكن محمد على - وهو فى بعض الاعتبار آخر المماليك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفل فى القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه

المذبحة. إنه الممر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون فى القرن التاسع عشر فرسموه، وفقًا لأسطورة شائعة - وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا إلى الأرض. ولكن الحقيقة هى على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضًا فى المماليك الذين كانوا متفرقين فى أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم فى الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث فى الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحياناً بالتقى والورع، وأحيانًا بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بـأنهم مصـريـون. ورأس الممـاليـك يصبـح هـو السلطان، منصب قـد ينتقل بـالـوراثـة من أب الى ابن، ولكن كـــان من المحبب لهم فى المعتـاد أن يتبنى السلطان مملوكًا أثيرا عنده، وكان هـذا المملوك إما يقتـل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القـول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثانى عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نـظام حكم أشبه مـا يكـون بنـظام الحكم الاقـطاعى فى الغرب، ولو أن فرق الجنس بين الممـاليك ورعـاياهم من الفلاحين الصابرين سكـان وادى النيل قـد جعل هؤلاء المماليك أقـل من بارونـات القرون الـوسطى فى فـرنسا وانجلترا اهتمامًا بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمدًا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيـين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينهـا على بـاب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة الممـاليك قـد دالت، على يـد غـزاة لا يقلون عتـوًّا عن التيـودور فى غـــزوهم لانجلتـرا، ولكن أعباء هـذه الإمبراطـورية التى اتسعت

فجـأة ثقلت على الأتـراك فـرأوا من الأصلح أن تكـون مصر بقرة يتولى المماليـك حلب ضرعهـا لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة عـلى مقعد الحكم إلى نهايـة القرن الثـامن عشر وإن بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيئان: هذه العيون الزرق والخضـر فى بعض الوجـوه السمر، وهـذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هـذه وتلك مساجـد بقبابهـا التى تتميز بهـا مقامـة فـوق قبـورهم، كأنمـا انتقـل إليهم بـالعـدوى، من روح مصـر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضـريح لائق بـالرقـدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمـة دولة انكمش عـدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليـون نسمة، فـالقاهـرة التى انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريـده المقدونى لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجـع الفضل فى اتسـاع هذه المـدينة الى أسـرة محمد عـلى، وإن تسعة أعشـار رقعتها لم تعـرف العمـار إلا بعـد انقضـاء عهـد المماليك.

ولم يشعر محمد علي في قرارة نفسه أنه مصري قط. ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندي الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن. وكان محمد علي يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانيًّا لا مصريًّا، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان في نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوي صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحًا. وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بين مثيلاتها. وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - في عاصمة مصر - يطغى على أفقها الشرقي.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها — كالشأن فى أغلب منجزاته — كانت مهتزة الدعائم، فلم يتم لها رسوخ إلا فى التسعينات من القرن الماضى. وفى قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد، كما نجده قاعدًا فى الصورة القلمية التى رسمها له روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًّا متين البنيان، عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح المنخرين، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة، هيئة أسد أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لها لأنها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب فى جيوبه، فلم

يجده. وكان أثنـاء بحثه لا يكف عن التعبـير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفـة، استجاب لهـا آخر الأمـر خادم سعى إليـه من أقصى الحجرة وقـال لـه «ابحث عنـه فى جيبـك الآخر» فـأجابـه البـاشـا «فعلت فلم أجـد فيـه منـديلى» رد عليـه الخـادم «إذن عـد إلى البحث عنـه فى جيبك الأول» فلما أجابه الباشا «ليس عندى منديل» أو بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريـع الذى أتى إليـه من الخـادم «بل عنـدك منديلك» وتكـرر القـول والـرد «ليس عنـدى منديـل» - «بل عنـدك منديلك» وانتهى الأمـر بأن تقـدم هذا الخـادم إلى الباشـا وأخـذ ينقب فى جيبى سترته دون أن يجـد المنديـل، فأخـذت يده تـدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشـال الذى يتلفـع به ولكن بـلا جدوى، حينئـذ أمسك الخادم بسيده مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونـظر تحته ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله من جديد إلى اليسـار، وظل البـاشا طـوال هذه المنـاورة العجيبة على أتم مـا يقدر عليـه من هدوء واستسـلام، ثم دس الخادم ساعـده إلى الكوع فى أحـد جيوب سـرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومده إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفى حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصى من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التى اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد على نهازًا للفرص، يمضى الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاحة لأنها انبعثت من دوافع باطلة – إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص – ولكن رجلاً له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم فى جميع البلاد العربية هى التى تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتباهه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له فى القاهرة «فإن اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى، فجاء أشد شوراع العاصمة دمامة واجتراء فإنه هتك احشاء حى من أجمل أحياء القاهرة، وهدم قصورًا وأزال حدائق وقوض جانبًا من مسجد عتيق لا لشيء إلا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق» هكذا قال ستانلى لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيهًا بشارع ريفولى فى باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى، فاختفى أكثرها واصبح جريحًا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع فى مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد على. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابي - مثيل عبدالناصر فى الثمانينات من القرن الماضى. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالاً بعيد الثورة فى شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات «وزارة الاصلاح الزراعى» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذى كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة فى أكسفورد، وبقيت الأدوية فى الحمام الملكى كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقى الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الـذى احتفل فيـه اسماعيـل بالامبـراطورة الفـرنسيـة ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية من الصعيـد، هي أسـرة لـطف الله، وبقى القصـر بقـدر ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبـل خلعه بقليـل) قائم الى اليـوم بجزيـرة الروضـة، من وراء أسواره العـريضة دروب يحفهـا نبات الصبـار أو تظللهـا أشجار البـانيان، لا ينساها من يجـوس خلالهـا، تصلح أن تكون مسـرحا لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر. وبالقصـر مجمـوعة ضخمـة من صور فـوتوغـرافيـة لملوك الـدول ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمـراسم. وينقلب طـابع القصـر المستلهم من ذوق دمشق الى طـابـع عهـد ادوارد فى إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمـام ورأينا من خـزفه زخارف على هيئـة أزهار. أقـام الأمير عـلى أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعـرض فيه السجـاد الشرقى، ولوحـات الملوك ورؤسـاء الدول، والمصـاحف المزخـرفة، وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التى كتبتهــا لها صــدقها، ولكن الســرعة التى يتصف بها تغيير الاحوال فى الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كـلامى محمولا عـلى الماضى، فقـد علقت على باب القصر لافتة بأنوار المنيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا بـاسم «عمر الخيـام المنيل» وقـطعت الشاليهـات امتـداد حدائقـه ولم يعد فى الإمكـان صنع فيلم سيـريالى كالذى تحـدثت عنه فـإن نبات الصبـار قد اذبله غشيـان السيـاح لـدروبـه وان كنـا - أنـا وانت - لم نهضم بعـد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنـين العملة الصعبة.

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسـع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهـذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التـراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحـدرا عن عصر الملكـة فيكتوريا عصـر القوة السيـادة، فإنـه فى نظر المصـريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمـام دار الأوبرا نـراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بـأنه أيضـا جد نـازلى أم فاروق فقـد استمـر تمثـالـه - الـذى يمثله بسـراويله الـواسعـة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيـل من الميدان القـريب من محل جـروبى حيث كان يعـطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعـات صوب الشيكـولاته، ومن حل محله ؟ تمثال باهت الشبه بـطلعت حرب مؤسس بنـك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر المـاضى الحديث هيهـات أن يجـدوا لهم غنيمة تفـوق غنيمـة زيـارتهم لمتحف السكـك الحديدية بالقاهرة، مـا دام باقيًـا. أنه منـزو بالقـرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النمـاذج والصور الفـوتوغـرافية، تشهـد باستبـاق مصر لـدخـول عصـر السكـك الحديـدية فى وقت مبكـر. وقـد وصفت لـك من سـابق محمـد عـلى وهـو يبـاحث كيـرزون فى مـــد خط حديدى، وقد تم مد خط بين القاهـرة والاسكندريـة سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف فى أحد مخازنـه الجانبيـة بالقـطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد بـاشا والى مصـر الذى أعـطى الإذن بشق قناة السـويس، أنه بـين القطارات عديـل سيارة رولـزرويس بين السيـارات وهو من انتـاج مصانـع ستيفنسون.. أول المصـانـع فى إنشـاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقـد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلتـه براقـا كقطع الكـريستال البـوهيمى إرضاء للذوق الشـرقى، وفـرش داخله بالطنافس فامتـزجت مع الآلات الملمعـة امتزاجـا غريبا. وكان سعيد باشا - الـذى كان بـين أفراد أسـرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء - مشهورا بـأنه كـان يقود هـذه القاطـرة بنفسه فى زيـاراته لاقـطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القـاهرة فـالفضل الأكـبر فيه راجـع إلى إسماعيل. تدين له إحياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالى، وأحيانا بنصيبها من رشاقتـه أيضًا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميـدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنـات البريـطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم فى سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهى إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعًا لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصًا بلغ القمة فى قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتى استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذى لا يزال الحرف اللاتينى الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.

الفصل العاشر

القاهرة.. طابع الأجانب

يجيء الأجانب فى الصف الثانى بعد أسرة محمد على، ثم، وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة، ولأنفسهم - غنائم كثيرة - فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر والتقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار الإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد - لبلى الساتر الخشبى ذو الزخارف الدقيقة فى مسجد الماردانى وتحول إلى تراب.

وهذا بارون آخر - البارون إمبان - كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة، التى نشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفًا.

وقد انفق البارون إمبان أرباحه من شركة الترام فى بناء قصر له على الطراز الهندى، يعد من أغرب الأبنية فى القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مادورا فى الهند ببرجه الشاهق المخروطى وتماثيله على هيئة الفيلة، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى فى بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا فى النظام الاقتصادى لمصر قبل الثورة مرتعًا خصبًا لهم، لم يكن بطبيعة الحال محبوبًا لأن تشبهه بالأمراء لم يأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون إمبان أحيانًا قليلة، فقد سبق له فى الريفييرا فى فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام

الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسمًا مستعارًا، فدعاه البارون إلى العشاء فى قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من أصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية، أو من ارتستات الكاباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شىء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل أسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداده لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدته له هذه الاستراحة.

ولكن مـا بقى واضحًا من نفـوذ الأجـانب هى هـذه المـطاعم والفنادق ذات الأسـماء الإنجليزيـة ففى مـطعم «سـان جيمس» – الذى اشتهـر وانفرد بتقـديم جمبرى البحـر الأحمر – يعـرض عليك صـاحبه بـزهو قصـاصة تـرجع بـك إلى المـاضى، إنها من جـريـدة «الإجبشيـان جازيت» فى عام ١٨٩٥ تقول:

«سيطبق المحل فى مكـانه الجـديد إلى المـوسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجـد السادة المقيمـون حجرة للنـوم مع الافـطار تمامًـا كما هـو متبع فى حى وست إنـد بلندن فى المناطق المجاورة للنوادى الراقية الخاصة».

واختفت التقاليد الأنجلوسكسـونية تمـامًا من فنـدق شبـرد. اللهم إلا اسمـه، ويـرجـع عهـدهـا إلى العصـر الفيكتورى حين أنشأ هذا الفنـدق رجل مغـامر جسـور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الإسكنـدرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببـواخرهم فى السـويس. لقد كـان فنـدق شبـرد القـديم معقـلا من معـاقـل رجـال الإمبـراطوريـة العظام، وكـانت الجرائـد تهتم بنقل كـل

مـا يدور فى أرجـائه حـول أثاثـه الخيـزرانى ونخيـلاتـه المغروزة فى قصاريهـا. فمثلا اهتمت الجـرائد بحفلة رأس السنـة الجديـدة لعام ١٩١٥ حيث دار الـرقص حثيثًا فى القـاعة المصـرية بـالأزياء الغـريبة المبتـدعة، وفى نصف الليل.

«أعـاد صـوت تـــردد فى القـاعـــة بعض الضيـوف المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجًا كاملا لطائـرة ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة فى صالة الـرقص، وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجههـا إلى الحاضـرين جميعا. واطلقت حمـامات تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنهـا لم تكن باللينـة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كـرته داخـل القاعـة وأصـابت وجه الجنـرال مـاكـلارن. وكـان وقتـًا عصيبـًا سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيرًا انتهى كـــل شىء ونـامت القـــاهـرة ملؤهـــا الحيـرة والتعب.. والسعادة»

أما عن أثر فـرنسا فـإن لغتها كـانت - حتى فى ظل الحماية البريطانية - أكثر تـداولا من اللغة الانجليـزية، ولا تـزال الليسيه الفـرنسية قـائمة ولا يـزال الجـزويت يحتفظون بمعاهدهم، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى أنشأه نابليون. وهناك جامعـة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسـرحيات تنسى وليامز.

وتتنـاثر فى القـاهرة بنسيـونات متـواضعة لـلأجانب الـوافـدين من وسط أوروبـا، كصديقى يـانكـو، وهـو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الـرسم، ويقطن فى شقـة تـطل على وزارة الأوقـاف. إنه يضـع على عينيـه نـظارة سـوداء، ويعيش مع كتبـه ومجموعتـه من نبـات الصبـار، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشترى حاجتـه من سوق الخضـار المسقوف فى باب اللوق أو مزيدًا من الزبيب من بقـال يونـانى قريب من داره، ولا يفـوتـه حضـور افتتـاح معـارض الـرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألـوان المائيـة على ورق غـير مستو، ولـه

أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو «الأحداث المشردون» وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألته عن الطابع المصرى فى الرسم أجابنى «ماذا تقول؟ ليس عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن فى الإسكندرية فى أواخر حكم الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرناً - باستثناء العهد الفاطمى - قد أخذوا الآن يعودون إليه بحماس كبير. وخديجة رياض - حفيدة أحمد شوقى الشاعر - تعرض لوحات تجريدية ولكنى أفضل شغلها فى الحلى إنه بديع، ورءوف عبد المجيد يحيل أكواخ الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندى هى عفت ناجى، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى فى الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز السحر - هذا العنصر الدائم فى حياة مصر - السحر

الأصيـل الشرانى، لا السحـر المـدعى طلبًـا للتصـاحب ولبـريق التـظاهـر، ثم تحيلهـا إلى رســـوم، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهمـا مطبـان خطران عـلى الفنان، ورمـوز عفت السحريـة هى من تشكيلات خشبيـة بارزة، فلهـا أبعاد ثـلاثة، وتصبغهـا بدهـان لامع كالفلورسنت»

أعود إلى صديقى يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير الفوتوغرافى، وقد ظل مرة ساهرًا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشىء من المرارة «الزهور؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين أشياء توضع فى سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار، وترسل لحفل زفاف»!

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه الزمن، فقد تلقيت أخيرًا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ.

الفصل الحادى عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامى

العمارة الإسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقنة - كما فعل القرن التاسع عشر دائمًا - منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقًا نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لى أن ألجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة «الإسلام» لأنها الاسم الذى يطلق على

هذا الدين وحضارته، فهى أفضل عندى من كلمة «المسلم» التى هى صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد النسبة التى استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحيون.

وحتى القول بان هناك مدناً أخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الإسلامية أو فى صدقاً وكمالا هو قول موضع نظر. حقاً إن كل من زار بورصة (فى الأناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع، وإن ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته، ولكنها جميعًا إما أبنية فرادى، وإما - كما هو الحال فى بورصة - أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرناً بعد قرن، يتدرج من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن الإزدهار العفى إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل

حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرناً هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامى بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه - كما فى عمارة الهند - فينبغى لنا، كما يقول ستانلى لين بول - أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائى لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لاتكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب. بل تكشف أيضًا عن اختلاط جانب دخيل وجانب أصيل لحضارة تتمركز فى القاهرة، وهى إذ تكشف تفسر.

إن مشوارًا طويلاً فى يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغى أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحى من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة فى الدرجة الأولى ثلاثة قروش، أى مايعادل ستة بنسات) ثم تنزل فى المحطة الثالثة.. محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لاتخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة فى غد، ثم امض فى طريقك واسلك دربًا معتمًا متربًا يحاذى السور الذى يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد فى القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠-٦٤١م وفاتحها هو عمرو بن العاص، وكان فى شبابه من أصحاب الرسول الذى توفى سنة ٦٣٢. وقد جاء عمرو من الأراضى العربية حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ كرسويل - «لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام - فيما يبدو - إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن أربعة جدران فى قامة

الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضى العربية تمثل فراغًا معماريًّا تامًّا أو يكاد».
وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدًا عبقريًّا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان فى حاجة إلى جامع يؤدى فيه صلاته. لاشك أنه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكتونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاقتصار فى غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلاً يشاركون فى كنائسهما، يصلون فى جانب، ويصلى المسيحيون فى الجانب الآخر.

واليوم فى الموقع الذى تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لانرى إلا سورًا عظيمًا من الآجر المغطى بالجص، كأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو فى الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فنى يحسن بنا أن

نتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهى غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين.

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط، كان فى الأصل معدًّا فى المحل الأول لأغراض عسكرية، ليتاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم فى أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمرو كان يوم إنشائه ضئيلا بالقياس إليه اليوم، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالحص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة أخرى

إلى زمن محمد على، وهو اليوم أفضل بداية لجولة فى القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها فى هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية.كانت مدينة من الخيام نصبها البدو.. حقاً إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران فى القاهرة الإسلامية تتجه دائماً إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها مسافة ميل واحد، انشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسي. فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة،

فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسى بيناً عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الاتراك - قد جاء من هذه المدينة الكبيرة، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد اشباعه جامع عمرو - رغم أنه كان قد زيدت مساحته - أصغر من أن يفى بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معاً.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل، أى لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه إلحاحًا شديدًا. وكان ابن طولون متديناً، تقيًّا، ورعاً.

وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه.

حقا إن وصوله إلينا سليماً يعد من الخوارق، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون. بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من القداسة، إنه أميل فى الشبه إلى معبد فرعونى منه إلى معبد إغريقى، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمه من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول الأكروبول فى الارتفاع، فأنت تصل إلى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام - وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميماً. فإذا جاوزنا المدخل الفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، ويتكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار. وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهى أقل قيمة من القبة الأصلية التى كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر، طلباً للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبذولاً ميسرًا من وراء الجدار الغربى .

للجامع الأصلي. إذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هي الواحة والعقود هي الغابة التي ترمز لما في النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها في ظلال الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحي ويخيم فيه السكينة الداعية إلى الاستغراق في التأمل والاستعبار، فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز في جبل لبنان، إلف نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج في الذاكرة كما يتوهج القرآن الذي نزل في مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنان، فالسماء والصحراء والماء والغابة، هذه الأشياء الأربعة إنما توحي بشيء خامس ينطوي في وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت في هذا المبنى لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال – فليس في الجامع طبعًا تماثيل – أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال، بل تستشعره في هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها..

وفى المساحة التى أضيفت للجامع وفى حضن أسواره العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملى، كأنها مسخ لطراز معمارى قديم، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى. وقد تعددت واختلفت الآراء فى تعيين هذا الشكل العجيب، فهناك رأى يقول إن ابن طولون كان رجلاً منصرفًا إلى عمل نافع أو متحفزًا له، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسًا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة فى استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس، فرآه جلساؤه يلهو بورقة فى يده، ويلفها فى غير مطلب، فلما أحس أنهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفًا إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره «اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى يدى».

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطى الهائل فى جامع سامرا، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائمًا

فى زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدمًا إلى الآن فى أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود الجامع وهى من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص، وكذلك زخارفه فى الأزوقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فإن المئذنة التى نراها اليوم ليست هى التى كانت قائمة فى البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين فى عهد المماليك. والمئذنة فى شكلها التى اتخذته فى عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانًا فتبلغ حد التخنث، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمئذنة إلى أصلها الذى عرف كيف يقتبس فى غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المنسابة التى ميزت المخروط الهائل فى مسجد سامرا. ولم تكن المئذنة منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة، إذ كانت المآذن - هذا الشكل المعمارى المستقلٍ - تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونًا عديدة. وكانت أوائل المآذن أبراجًا مربعة حول الكنيسة الكبرى فى دمشق التى أصبحت فيها بعد مسجدًا. وكلمة مئذنة فى الأصل تعنى «مكان يسترعى فيه الانتباه» وكان يمكن أن

تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة - تلك التى اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسى وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبًا.

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من طراز بيزنطى. جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما - كأنما تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت فى عهد لاحق. كانت تتهلل فى الماضى للمجرمين، هى حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيًا لسيدى المتولى، إنه قديس يطير فى الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج

بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى «باب المتولى». وهناك طريقان سهلان يؤديان إليه كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشى مرخى القياد، غير متريث لتتأمل أثرًا معماريًا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفثه عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبلى، فإن سيرك فى أى الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو.. أو من صرامة الجد والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أى خريطة لآثار العصور الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكاد، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك، وبدايتهما واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى

فوق رابيته، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقًا وغربًا، هابطا من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود إليه بالليل. ترى فيه «سبيلًا» من طراز تركى، وحمامًا عتيقًا أسدل على بابه – كستارة – بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعًا له قبتان حيث يرقد اثنان متصدقان من رجال المماليك، والأفضل أن تكون هذه الجولة الليلية آخر شىء تفعله قبل أن تأوى إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فأنت إذا تابعت شارع الصليبة فى صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشربًا للشاى – شتان بينه وبين أمثاله فى أوروبا رغم وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة «سبيل» انطلق فيه فن العمارة التركى على هواه، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر فى أواسط آسيا لا فى إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة اضلاع بارزة

النقوش وفق الذوق التركى، وشبابيك حواجزها مصنفرة بدقة وتداخل بارع. بجـانب السبيل دكـ البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء. إلى جـو مشرب الشاى رجل لفه الذبول يحتسى قدحًا من باللبن.

سأعيد لك وصف جولتى محـددًا زمن كل رحلة للقراء جاعلًا قيامى بها فى يوم معتاد من أيام شهر والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبـدأ أول مؤد إلى باب زويلة، يسمى ابتداؤه بشـارع السيوفي يمتـد مستقيمًا وإن تغـير اسمه أربـع مـرات، ولا ي إلا شارعًا واحدًا كبيرًا، وهـو الشارع الـذى كان من قبـل شارع محمـد على وأصبـح اليوم يسمى ب القلعة، فإذا بلغته فجاوزه محـاذرًا حركـة المرور ال فيـه، وتابـع سيرك فى نفس الاتجـاه فإنـه الطريق اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هـو إلا واحـد متصل. إننى أمـر بذبـائح الجـاموس وعـلى أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول ا

للبطاطس - وهو معروض أيضًا أمامى للبيع - من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودًا فى نسج السجاد، ها أنا ذا أرى صدفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمر بعد قليل ببرميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقى إلى أن أصنع لنفسى «سلطة» متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التى لا تزيد فى الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين فى لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبى يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحًا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال «نعناع. نعناع» كم هى عسيرة هذه الكلمة على نطقى، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملأ خياشيمى، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هى امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقًا اسمه «الدقة» وهى اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقى إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثًا بالأسمنت

المسلح، فهو دميم فى هذا المكان، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلاً ويستطيل، أدخل مقهى أمامها سقيفة، بلدية هى ولكنها مريحة، عليها لافتة تقول «قهوة محمد ناصف وأولاده» وأشرب فنجاناً من قهوة ناصف التركية «سادة» أى خالصة بغير سكر. على حين يمر أمامى حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة، حشرت فى أفواهها سدادات مكورة من الورق، هى قدور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذى يلتزمه المصريون لفطورهم، يخلط بالزيت ويتبل. ادفع ثمن قهوتى ما يعادل خمسة بنسات - ثم أمضى فأمر على «قصارى» الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الاخير من الطريق. إنه سوق مسقوف «وكلمة بازار الشائعة فى الهند غير مستخدمة فى مصر». وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلى ذائع الصيت، فخ السائحين من قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذى يرسم لك أقرب صورة إلى الصدق باقية إلى اليوم من حياة الناس فى عهد المماليك.. أبواب ضخمة - متروكة

الآن مفتوحة دائمًا - رشقت فيها كرات من حديد، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة المماليك، هنا تستطيع أن تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهى أشياء تقصد أيضًا إلى الزينة وإن بقى لها نفعها وثمنها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذى يتسلل إليه - كأنما من مصفاة - ضوء شاحب، ينتهى فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتى، إن مشوارى من جامع ابن طولون - مع حساب تريثى لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده - قد استغرق من وقتى ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الأول فى المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجًا، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين - أحدهما جامع السلطان حسن الذى سنزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما

على حافة وسعاية صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يسارًا إلى شارع التبانة الذى يمر بجامع الماردانى(١).. ثم يتجه غربًا فيحيط بالدرب الأحمر، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وأنغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الأصيل الذى عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخًا على يمينك غير مواجه لك.

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج فى الفن العربى الإسلامى، فأعمدته من كل شكل وحجم.. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية. وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالأزهار ذات الطراز الكورنثى بل إن بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب. ولكن الطريقة التى وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس. وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هى إحدى السمات الواضحة فى الفن الإسلامى العربى. كما أننا نرى فى المشربية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مثالاً رائعًا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وإن تجدد أكثره. وقد كان الماردانى ساقيا للحاكم الملوكى الكثير الذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج احدى بناته، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته.

وهكذا تجدنى دائم السعى إلى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الأنظار، وإنها لكذلك، فهى المدخل إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التى بنيت أصلاً لتكون مقرًّا لشئون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هى مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالاً الجزء الشمالى من سورها الأصلى، وشرقًا سور صلاح الدين الذى أقيم فى فترة تالية، وجنوبًا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع، وغربًا مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين. أما أصل بنائها فمعروف لنا تمامًا.. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبى،

ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبى[1] التى تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسًا للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام - وهى الشيعة - تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة على من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حاليًا نصف سكان العراق تقريبًا وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى، فى حين كان مذهب الشيعة هو الأساس فى إنشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهو ما يدين به المسلمون جميعًا، مضافًا إليه «على وصى الله».

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففى ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الأرض بواسطة قوائم

---

(١) لقد توفى كل أولاد النبى الذكور قبل البلوغ.

من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبـال مدلى منهـا أجـراس، ووقف المنجمـون المغـربيـون عـلى استعـداد يتفحصـون أدواتهم وطوالعهم الفلكيـة حتى إذا اطمآنـوا إلى دخول الوقت المبشـر بالخـير، حركـوا الحبال لتمـر عبـرها الحـركة - كتليفـون بدائى - فتـدق الاجـراس إيذانًا بالعمل، ولكن الذى حصل هو أن غرابًا وقف على الحبل وسبق المنجمين فى هـزه وإعطاء الإشـارة، فانهالت الفئـوس والمعـاول من آلاف العمـال تحفـر الأرض. ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكتفى المنجمون بـأن يحسبوا الكوكب صاحب الطالع وقت الخبـطة العشواء فـوجدوه المـريخ. ذلـك الكوكب الأحمـر اللون واسمه «القـاهر» فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة «القاهرة» واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريـدة، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كـاهتمامهم بـالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم قـد انفصلوا عن بقية العـالم الإسلامى. فـظهـر فى الفن اتجاه حسى لم يظهر فى العصور العـربية الأخـرى، اللهم

إلا فى إيران الشيعية، وبدلاً من أن نرى الزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشًا على أوانيهم الخزفية صورًا لعازفى العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسومًا لحيوانات أيضًا، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى المتحف الإسلامى.

ويتميز الفاطميون أيضًا بالسرعة والهمة فى الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالاً إلى منتصف المربع، ففى السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الازهر فى ٣ ابريل فى الجزء الشرقى من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢.

ولا يزال لهذا الجزء من القاهرة - الذى كان أصلاً المدينة الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكى ذات الحدائق

الداخلية - وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عامًا إن «المصلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة» ولكننى أقول إن كل مدينة - بله العاصمة - لا يمكن أن تظل على حال واحدة مثل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الآثار يعطى مجالاً لتصور ما كان عليه الحال فى الماضى.

إذن فلنأخذ الآن الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب إلى باب النصر فى الشمال، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى «جولات فى القاهرة» فهى ترشدنا فيه - كأحسن دليل - فى لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذلقة إلى ما احتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجلية، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى اغفالها فى هذا الفصل

من الكتاب. ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها فى القاهرة مع كتابها ونعود فنتقدم فى طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والآثار البديعة الأخرى التى خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو فى شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافأ فى نهاية مسيرتنا المضنية فى الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية التراث الإسلامى، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمى أولاً بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف الآن فى الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب. والأسوار تغطى الجامع وهى حماه، فلكى نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكاناً فوق أحد برجى باب النصر. واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال فى

القاهرة. صحيح أن فى القاهرة جوامع أكبر حجمًا ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربى الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونًا، فى حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفى، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتهما، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنًا من أركانه.

وقد قدمت اقتراحًا لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلاً من إهماله خصوصًا وأنه يقع فى مدينة ينادى بها قلبًا للعروبة فأجابنى: «ربما كان الكره الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب فى إهمال جامعه».

والحاكم - حفيد المعز - كان أشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى. إنه كان مدللاً شديد الأنانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كما

كـان مصدرًا لكثـير من المضايقـات للناس فى التـافه من الأمور وفى خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعـه. قتله شخص مجهول فى الصحراء اثناء تجواله فيها وهـو راكب حمـاره. وكان من ضحـاياه الأقبـاط فقتـل منهم الكثـير، وبائعو الملوخيـة التى حرمهـا، وهى طعام صمغى القـوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنـع أحذيـة النساء منعًا لهن من الخروج من بيوتهن ليـلًا ونهارًا، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كـما حرم أيضًا اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمـر الذى يجعلنى أنفـر منه. ولكن لابـد أن هذا الـوحش المتألـه كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هـذا ويجعلونه رمزًا مجسدًا للفضائل التى تجمعت فيه. ومـع كل فإنى اتردد كثيرًا قبل أن ألـج هذا الجـامع ليـلًا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج مـا تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المـربع الـذى تسمو منـه المئذنة إلى طرفها المـزخرف ويصـدر عنها عجيـج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق.

وبجامع الحـاكم هذا تنتهى سلسلة من الجـوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تمامًا مثل جامعى عمـرو وابن طـولـون، نبعت من هـذا الـدين الـذى ينـزع إلى الديمقراطية فى أحد نواحيه. فكـل الناس داخـل الجامـع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضـر فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالـروح العسكريـة وبالفحـولة مثلما كـان الشعب يجمع بين شعـائر العبـادة وحمل السـلاح، وأعنى بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتـذاك جنسية عـربية وأخـرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف إمامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى.

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرًا مـا. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كـان مختل العقـل طاغيـة، ونعلم أيضًا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء كاملة فى المـدينة صـارت لهم سطوة طغت أو كـادت عـلى سـطوة الشخص الذى كلفوا بحـراسته، فكـانت هذه الـرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء

حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنـوثة التى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضـوح فى أعمـدة جامـع ابن طولـون أكثر من أى مكـان آخر، فهى مؤشرات تدل على أن الإسلام فى عهد الحاكم ابتـدأ فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولـة الفاطميـة عندمـا احتل الصليبيون القاهرة لمـدة قصيرة سنـة ١١٦٣). ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه فى القـرون الأولى عنـدمـا امتـطى المسلمـون خيـولهم مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيـا بأسـرها، ثم بـدأت الفـرقـة بينهم، ومـا كـان الخليفـة الفــاطمى إلا واحــدًا من الــذين ادعــوا حق السلطان لأنفسهم ونافسه فى ذلك صاحبا بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيـارة أجرة، وفى طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفى شارع بين القصرين الذى اجتزنـاه من قبل نـدع السيارة تقف بنـا هنيهة – دون أن يبـطل عـدادهـا عن العـد – عنـد الجامع الأقمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين حفـظًا، وله

واجهـة جامـدة ضئيلة الزخـرفة كعـادة الفاطميـين. ولا نتلبث عنده إلا قليلاً، ونطلب من السائق أن يتـوجه بنـا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسـر حتماً بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريـح أن المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسهـا أو تعاليمـه - قد نالـه بعض التغيير، كـما أن المبانى تغيـرت فى الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامـع ابن طولـون فى إظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفـوس المتعبدين ويشبههـا أيضًا فى إقـامـة هـذا البنـاء المتعـالى الضخم لأجـل ان يضم رفـات إنسـان ضئيـل. ومـدخل هـذا الدهليـز عبارة عن بـوابة ضخمـة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفى نهايتـه نجد صحنـا واسعًا مكشوفًا للسماء التى تبدو بعيدة لأن الصحن محـاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخـال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريـح خلف إيوان

القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعدًّا لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذى كانت له سطوة وقوة. ولكن ابنه حسنًا لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين. وكفاه ذكرًا أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلاً أيضا على حالة الدول الإسلامية فى أواخر العصور الوسطى.. وهذا الجامع ولو أنه بنى خصيصًا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضًا أربعة مدارس، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدى إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها فى المذهب السنى، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدًّا ولا يمكن أن تقارن بما بين مذهبى السنة والشيعة من اختلاف. ومع ذلك وبالرغم من هذه الرعاية كما نراها فى هذه المدارس وفى الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزًا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريين

كان مملوكًا أى غريبًا من طائفة لم تندمج من الشعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدين أو كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين. من هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطًا طويلاً بعيدًا من روح عمرو الذى أقام مدينة من الخيام وبنى مسجدًا متواضعًا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية. عمرو هذا الذى قدم من بلاد العرب المحمدية حيث كان النبى يرفع ملابسه فى بيت متواضع وحيث شاركت النساء فى غزوات الحروب وندوات الأدب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت إلى حجزهن فى «الحريم». ففى جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا.

أما آخر مرحلة فى رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضًا متداع، وتعددت القباب حتى صارت رمزًا لمدينة الموت. وقد ابتدئ فى زرع

الأشجار فى الأراضى المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين القبور. هيا نختار واحدًا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحًا. وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مباشرة للفتح التركى العثمانى. ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل.. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت،فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادًا لسهرة المساء. وفى الفلوكة - عندما تقترب الشمس للمغيب - نرى مسجدًا جديدًا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقًا بإحياء العمائر التى تمتد إلى السماء على الطراز القوطى.

الفصل الثانى عشر

القاهرة.. والأمسيات

إن ليل القاهرة يظل عالقًا فى الذكر أكثر من نهارها. بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالى أوروبا، ويرجع بعض ذلك إلى الطقس، فحالما تغيب الشمس خلف الأهرامات، تهبط درجة حرارة الجو هبوطًا سريعًا ملحوظًا سواء كان ذلك شتاء - عندما تكون درجة الحرارة فى النهار حوالى ١٥ درجة - أو صيفًا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة. وتبدو النجوم اكثر عددًا وأشد لمعانًا بسبب جفاف الجو، بخلاف ما تبدو فى الأجواء الرطبة. إذن فما هى المتعات التى ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر ألفان من خفراء الليل الكبار السن

بنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها؟.

هناك أولاً ستة عشر مطعماً تنتشر على طول النيل، يتخذ بعضها مكاناً فى العوامات والباقى على الحدائق فى الهواء الطلق، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الأمطار التى لا تهطل إلا دقائق معدودة كل عام، ولو أن بعض ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة فى الأجسام. أما مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطئ الغربى فى الجيزة. والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها، وهو يحرم بيع المشروبات الكحولية فى شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار، فى حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (فى بعض الأماكن التى يرتادها السائحون). وعلى ذلك فلك الحرية أن تطلب - طوال العام خلاف ذلك الشهر - ما شئت من البيرة والزبيب[1] والنبيذ المصرى. وعصير الكروم المصرية فى

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللون الذى يتحول إلى لون =

الحقيقـة يستحق شهرة خـلاف مـا هـو عليـه، فمـزارع جنـاكليس فى الدلتـا تنتج أنـواعـاً متعـددة من الأنبـذة الحمراء والبيضاء بـأسعار معتـدلة، وهى بـالتأكيـد أجود بكثير من الأنبذة العادية المنتشرة فى فرنسا. وعمر الخيام هو أحسن الأنبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء. والصنف الوحيـد الذى تجـده فى المطعم ليؤكـل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم، وقـد اتخذه الكازينو اسماً له، فإذا أخذت فى تناول طعامـك أحاطتـك - تراقبك بصبر - فرقـة من القطط هى حتـماً نتاج تلك التى كان يقدسها الفراعنة، ويظللك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور، بينما تنساب بجانبـك - حتى تكاد تلمسهـا - الفلائـك والمراكب ذات الأشـرعة تحـركهـا الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الأكل وتـذوقه، فمـطاعمها - خـاصة تلك الملحقـة بـالفنـادق

= أبيض عند خلطه بالماء. وهو معروف باسم أوزو فى اليونان. وراكت فى تـركيا. ويسمى فى البلاد الأخرى بالعرقى.

الحديثة - تقدم الطعام الغربى المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد إلى متوسط، ثم إنها تقدم لك الأطباق باردة حتى طبق الأومليت، فإذا أصررت - كما أفعل دائمًا - على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فإنها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الأكل. والحد من استيراد الكماليات يعنى اختفاء بعض الأنواع مثل الجبن الفرنساوى أو الايطالى. ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصًا لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعًا ممتازة من الأسماك تأتى من البحرين المتوسط والأحمر ويقال إن كمية الفسفور العالية فى البحر الأحمر هى السبب فى ضخامة حجم الجنبرى السويسى.

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الأطعمة بتناولها فى المطاعم البلدية. وإذا كانت باريس مركزًا تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فإن استنبول هى الأخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لا يقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه إلى كل الولايات التى كانت تابعة

للإمبراطورية العثمانية السابقة، أعني اليونان وسوريا ومصر، وإني شخصيًّا أضع الطعام المصرى فوق اليونانى وأقل قليلاً من اللبنانى، فتجد فى المطاعم البلدية الكفتة والكباب وهما أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل منهما من لحم الضأن، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق شواية، أما الكباب فيشوى اللحم فى قطع صغيرة منفردة، وتجد أيضًا الملوخية وهى جديرة بأن يتذوقها المرء وهى نوع من الخضروات الغروية التى سبق أن ذكرنا أن الحاكم - ذلك الخليفة المجنون - قد حرم أكلها. وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقليين وتجده فى مطعم صغير بالقرب من باب اللوق، أما الكوارع وهى تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتى ولذلك لا أستطيع أن أحكم عليها..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التى يقبل عليها القاهريون، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية. وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل

وبعض الأعشاب العطرية وتضاف إليه الخميرة ليصير هشًا ناعمًا ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى فى الزيت. وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما فى ذلك رغيف بلدى مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته حوالى عشرة قروش.

ها نحن الآن قد فرغنا من تناول العشاء، والمعتاد فى القاهرة أن تعوض كمية الطعام ما ينقصه من الجودة. فماذا بعد ذلك ؟.

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الأمر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة أو فى مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء. أما الرجال فيتوجه كل منهم إلى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاى ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة أو فى مشاهدة التليفزيون أو مجرد الحديث، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم. غير أن الشبان صاروا ينتمون إلى الاندية الرياضية

ليمارسوا بعض الألعاب، وإلا فإنهم يـزحمون الأرصفـة عند مداخل دور السينما.

وأمسيـة الخميس هى أمسية السينـما بـلا منـازع لأن الجمعة هو يوم الراحة...وفى القاهرة اثنتان وتسعـون دارًا للسينـما يختار المـرء منها مـا يحلو له، وجمهـور السينما فى العـواصم العربيـة لايقل حمـاسًا لهـا أبدًا عن أمثـاله فى البلاد الأخرى. والقاهرة هى المـدينة العـربية الـوحيدة التى تـوجد فيهـا صناعـة سينمائيـة ضخمة فقـد انتجت استوديوهاتها التى تقـع على طـريق الأهرام أفـلامًا منـذ العشـرينات. وكـان الإنتاج فى بعض السنـين يزيـد على مثيله فى بـريطانيـا، الأمر الـذى جعل بعض المخـرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدى أسفـه لان الكثرة طغت علىَ الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها. ويأخـذ الفن السينمـائى المصرى أسلوبًـا واحدًا لا يغيـره. ولى تجـربة شخصيـة مع هـذه الصناعـة عندمـا كـانت تحت السيطرة الرأسمالية، فقد دعتنى صديقة لتناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصـل شامى بـدأ حياتـه فى

تصميم زينات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين إحدى عميلاته - البطلة الروائية فى رباعية لورنس داريل) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام لملايين العرب. وطلب منى قائلا «أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية، وستكلفانى معًا نصف ميزانية الفيلم فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شىء جديد مبتكر». وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين، إحداهما - فاتن - متزوجة من عمر الشريف الذى لعب دور الشيخ فى فيلم لورنس، وهى فيما أعتقد أشد الممثلات إخلاصًا لعملها، والأخرى - شادية - فتاة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع.

سألت «أتطلب شيئا واقعيًّا ؟».

فرفع يديه بأظافرهما الملمعة فزعًا وقال «أعوذ بك يا مستر ستيوارت. أرجوك إن جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم ما يكفيهم من الواقعية، إنما أريد لهم أن ينطلق بهم خيالهم بعيدًا عنها».

وهذا لا يطابق الواقع كما شاهدت فى الأفلام

المصرية، ولكننى كنت فى ذلك الوقت محتاجًا إلى المال - كما تعلم بذلك صديقتى - وكان ما عرضه على - مقابل عشرين صفحة - ما أقنعنى. إلا أن صديقًا حذرنى ناصحًا: «خذ حذرك فإنهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل إلا الأخيرة منها» وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما أستحقه إلا على أقساط ضئيلة وبعد إلحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيًّا فإما أن يكون «نائمًا» أو «متغيبًا فى سوريا». ولما انتهيت من القصة وبقى لى ثلث ما أستحقه قيل لى فى نبرة استياء «كان يمكن لابنى أن يسطر فى صفحتين ما ملأت به عشرين صفحة، أما عن لغتك الإنجليزية فإن ابنتى وهى طالبة فى الجامعة الأمريكية تقول إن المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالإنجليزية الخالصة».

وماذا كان فى مقدورى أن أفعل. لقد كنت غير راض عن هذا السيناريو غير الواقعى. ألم أظهر شادية فى أحد المناظر وهى محرومة من الأولاد تبكى وفى يدها كتاب مفتوح من كتب الأطفال جالسة على أريكة من طراز

لويس السادس عشر، فإذا انتهى هـذا المشهد المـرسوم، تجف الـدمـوع وتتحـول إلى بسمـات ونـرى شبـابـاً فى سيـاراتهم وطائـراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصـة بغسـل الدموع بالغناء والرقص. وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدًا.

وقد مثلت فاتن أيضًا فى فيلم «دعاء الكـروان» وهى تراجيديا تدور وقائعها فى الصعيـد ألفها الأديب الكبـير الدكتور طه حسين. وأخت فـاتن فى القصة يغـويها محـام فتنهض هى للانتقام منـه، وكان النصف الأول من الفيلم واقعيًـا إلى درجة تـظهر فيـه الأقـدام حـافيـة تحـوطهـا الخـلاخيـل. الأمـر الـذى لم نسمـع بـه من قبـل. وهبط النصف الثانى، وفيه نرى المحامى يصـطحب فاتن - التى نراها فى زى سيدات الزمـالك - إلى نـزهة عـلى شاطئ البركة، وهو ما لايخطر مطلقًـا على بـال أحد فى الصعيـد المحافظ.

ولعبت شادية بعـد ذلك دور فتـاة من بنات الليـل فى حسن فـيلم - فى رأيـى - أنتـج إلى الآن، هـو فـيلم

«اللص والكلاب» كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الأمر بأن حوصر وقتل بالرصاص تمامًا مثل ما حدث للمجرم الأمريكي ويللنجر. وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذى خانه مرشده وتخلى عن مبادئه. ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفاء، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسيًا مثيرًا قليل الحوار.. ولم يكن سبب انحراف البطل تافهاً فقد دفعه إليه - أثناء عمله كخادم فى بيت الطلبة - طالب يسارى لا يقيم وزنًا للقيم الروحية. وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادئ الاخلاقية قد بليت وعفى عليها، وأن اللص فى البلاد الرأسمالية حينما يسرق إنما هو شخص تقدمى، وهى أفكار قد عفى عليها فى الغرب ولكنها لا تزال تأخذ بقلوب بعض الأشخاص. إلا إن هذا الطالب يغدو صحفيا ناجحًا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذى طبق دروسه بحسن نية، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم. صرعه رجال الشرطة برصاص المدافع الرشاشة

بجوار جدران جامع الجيوشى. ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى.

وهناك علامات توحى بأن الأسلوب المعتاد الذى يسيطر على قصة الفيلم المصرى لم يعد له مجال كبير، وظهرت مناقشات فى الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجوم فقط لما تبين - كما أخبرنى صديقى المخرج - أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حوالى ٢٥,٠٠٠ جنيها) فلا يبقى إلا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنيين المتخصصين، كما أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة، لأن خبرتهم فى التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصى، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة فى دور التمثيل التعليمية، وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبتدئ.. وإذا لقى حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيهًا فى الفيلم الأول إلى ألفين من الجنيهات فى الفيلم الثانى، ثم يملأه الإطراء بالغرور طول حياته، ما لم يكن - مثل عمر الشريف - صاحب موهبة حقيقية.

ويمكن القول بأنه لن يتم إنقاذ الفن السينمائى المصرى والنهوض به إلى المستوى الذى يجعله جديرًا بالتقدير فى الدوائر السينمائية العالمية إلا عن طريق النهضة المسرحية التى تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فى مصر والتى استمرت قوية منذ ظهورها فى أوائل السبتينات.

وقد ظهر التمثيل المسرحى فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط، أما الآن فهناك ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربعة عشر دارًا مشيدة للتمثيل، وهذه الفرق قابلة للزيادة وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع ابتداء من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين مثل «بابا ما يعرفش» إلى ترجمات من بيكت ويونسكو. ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشئ ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية، كما أنشئ مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الأول فى

مصر، وكذلك أنشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملاً - بضمان من الحكومة - حال تخرجه. وقد أجريت حديثًا مع الوزير المسئول عن الثقافة فى مكتبه فى أحد الأدوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوبًا عن هيئة الإذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

«منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم فى أيد مصرية صميمة، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعًا، ولا تبرر إقامة شخص فى أسوان أو حتى فى واحة سيوة أن يكون بعيدًا عما يجرى حولنا فى العالم الحديث، بل يجب أن يكون على بينةٍ من ذلك، إما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر - بدون أن نستحى من ذكر ذلك - إلى الجمهور الكبير لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعًا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبنى

فوقها إلى أن ينتهى بنا البناء إلى قمة هرميـة من الكفاءة العالية»

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزًا لـلإشعاع الثقـافى لجميع أنحـاء البلاد يـظهر واضحًـا فى الموسيقى، وبشكل أوضح فى الغناء. وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العـرب دائـمًا، وفى نفس الـوقت تؤثـر بسهـولـة عـلى عواطفهم. وكان الشعـر هو الفن الصحـراوى القد، وفى مصـر المثقفـة تغلغلت أغـانى أحمـد شـوقى وأحمـد رامى الشعـرية فى الجمـاهير العـريضة بـاستماعهـا إلى صوت سيدة فريدة هى السيدة أم كلثوم، ولها معجبـون فى العالم العـربى كله. وقد كـان من عادتهـا أن تقيم حفـلاتهـا فى الخميس الأول من كـل شهر فتمتـلئ المقاهى من بغـداد إلى مراكش انتظارًا لأغنيتها الجديدة. ويوجد فى القاهرة بـالقرب من ميـدان التوفيقيـة مقهى أم كلثوم، وهـو من ثـلاثة طـوابق، الأرضى منها مفتـوح على الشـارع وهـو مقهى عادى بأنواره وضوضـائه، والـطابق الثانى خـافت النور وبه مسجـل للصوت ينسـاب منه صـوت أم كلثوم

قويًا يستمع إليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة فى هدوء، أما الطابق العلوى فالنور فيه أشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع فى خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسًا فى محراب الفن.

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى - على حسب التعبير الفرويدى - إن الدولة اخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) أى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم «الإد» أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير. وقد طبق هذا التهذيب على الرقص.

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين. ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين: الأول منهما يتكون من الغوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات التركيات الأنيقات فى ذلك العهد، وهو عبارة عن سراويل واسعة

وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو أكمام مدلاة مشقوقة، ويضعن فوق رءوسهن قلنسوة منبسطة. وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الروماني. وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال في حفلات الزفاف. وكتب لين الوقور «أما عن رقصهن فيكاد يكون خاليًا من الأناقة، وأهم ما يميزه هو هز الأرداف هزًّا سريعًا من جانب إلى آخر».

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين في ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان. فإن ذلك استدعى ظهور الصنف الثاني من محترفي الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الغيورين أفضل قليلا من الاختلاط. وهذا الصنف يتكون من رجال من أهل البلاد يتزيون بزي النساء وينتحلون شخصيتهن، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التي وصفناها عند ذكر رقص الغوازي، وعلى نغمات الصاجات مثلهن تمامًا. وحتى لا يشتبه على

البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسًا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النساء، ويتكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من «الجونلات».. إلا أن منظرهم العام يوحى بأنه نسائى أكثر مما هو رجالى لأنهم يطلقون شعورهم ويجدلونها - كما تفعل النساء - على شكل ضفائر نسائية، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ فى الظهور، وكانوا يقلدون النساء أيضًا فى تكحيل العيون وصبغ الأكف بالحنة، ثم إنهم بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم، يتحجبون أثناء سيرهم فى الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل إحكامًا فى تقليد النساء. وكثيرًا ما كانوا يفضلون على الغوازى للرقص أمام الدور أو فى أفنيتها الواسعة فى مناسبات الزواج أو إنجاب الأولاد أو الختان، وكثيرًا أيضًا ما كانوا يزاولون مهنتهم فى المهرجانات الشعبية العامة.

أما رقص البطن المنتشر فى النوادى الليلية الحديثة (وفى القاهرة منها خمس وعشرون ناديًا ليليا) فهو آخر

مرحلة من تطور رقص الغوازى، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد فى شيء، إنما هى اعتقادات خاطئة فى أذهان بعض مصممى الأزياء الأوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص فى أوبرا «عايدة». وهذه البدلة تبدي جزءًا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسى اللون وبين الجزء السفلى الشفاف. وفى عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمى تحت أقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها فى بدلة رقصها كالترتر.

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا «التهذيب» الحديث، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطية هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل. وحاول – عبثًا – بعض ذوى الأفكار النظرية خلق نوع من الفن «الخالص» من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتى تأخذ فى أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة من الطبول.

وكثيـرا ما نجـد عـازفًـا كفيفًـا فى الفـرقـة المـوسيقيـة ولا يقتصـر أداء رقص البطن عـلى النوادى الليليـة مثل الموجود فى فندق هيلتون، بل يمكن مشاهدته فى أى حفل زفـاف فى المدينـة حيث تهتز البـطون العاريـة مـع نفس الحركات والإيمـاءات المتوارثـة كما كـانت من قبل عـلى الدوام. ولا يزال فى الإمكان استخدام الراقصين الـرجال المتزيين بزى النساء، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمـو إلى جدائـل طـويلة وينتفـون حـواجبهم وصـاروا يعرفون الآن باسم «أبو الغيط» بـدل اللقب الذى كـان يـطلق عليهم سابقـا لأنه صـار الآن نوعـا من الشتـائم والإهـانات ذلـك أنـه أصبـح يـطلق عـلى المخنثـين من أصحاب الشذوذ الجنسى.

وإذا كانت الغوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر «الإد» أو الغريزة فإن فرقة رضا للفنـون الشعبية تحـظى بالقبـول لدى «السـوبر ايجـو» أو«الأنا» وكـان السبب فى تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة، وعند وجـودها فى

القاهرة قدم السفير الصينى دعوة «لفرقة مصرية راقصة» أن تزور بلاده. وسببت هذه الدعوة حرجًا حيث لا يمكن التفكير مطلقًا أن ترد الزيارة فرقة من الغوازى أو المتشبهين بالنساء، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة. ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلًا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمى وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الإعجاب، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم إياها. وقد تكونت هذه الفرقة فى مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام فى باريس مع فرقة الفريدو الاريا الأرجنتينية الراقصة). وكما جاء فى جريدة «الآراب اوبزرفر» عن الفرقة فإنها «قدمت من سنين عديدة بالية كاملًا باسم «عروسة النيل» تحكى قصة عاشقين قرويين - على غرار روميو وجولييت - ولكنها تنتهى نهاية سعيدة. وصار هذا البالية محور عروض الفرقة فى تجوالها فى ألمانيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضًا، واشتركت الفرقة فى يوغوسلافيا فى مهرجان للرقص

الشعبي وحازت على الجائزة الأولى»

أما الفن الشعبي الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضًا تغييرًا شاملًا مماثلًا لما حصل للرقص وهو يشبه عروض بانش وجودي في بريطانيا، وكلمة قراجوز وهي كلمة تركية تعني «العيون السود» - كانت اسمًا لأحد مهندسي صلاح الدين، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هذا الفن الذي تتوه بنا أصوله الأولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين. وكان القراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام إلا ليلًا كما ذكر لين في كتابه المذكور. وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز في حفريات في الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهي موجودة في برلين، وقد صنعت في القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك. وتمتاز بيريه في اليونان الآن بعروض القراجوز في شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة إذا رغبنا في مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالًا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهي تلعب كوميديات غالبًا

ما تكون مخلة بالآداب. أما فى القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل «بانش وجودى» تصاحبه جلبة عالية، ويطوف فى شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازفى الصندوق الموسيقى - البيانولا - الذى تزينه صور سيدات على الطريقة النابولية. وأعرف شخصياً اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوى الألوان المبهرجة، ويندمج الأطفال فى بعض الأحيان مع هذه العرائس إلى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارته، الأمر الذى يبعث السرور عند مرتشفى القهوة الجالسين على شرفات المقاهى.

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازى والمتشبهين بالنساء إلى فن من الرقص الشعبى، كذلك أمكن تطوير القراجوز إلى مسرح للعرائس تحت إشراف وزارة الثقافة. وكانت فرصته التى ساعدته على الظهور إنشاء

مسرح خاص بأنواره التى يمكن التحكم فيها. وفى يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين - أحسن رسَّامى الكاريكاتير وأضخمهم أيضًا - رواية «حمار شهاب الدين» لهذا المسرح، وهى قصة خرافية وقعت حوادثها فى بغداد ولكن على أحدث التقاليد. وكانت الإضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعًا. ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتورى فقط فإن من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتى بأى فحش فى القول أو عنف أو نكات ذات ثورية. فكان هذا الوقار سببًا فى فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتى نجدها فى العروض الشارعية. وهذه الأخيرة التى لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر - أو هى تعرف بالغريزة - بديهية دورانتى أستاذ فن العرائس العظيم فى القرن التاسع عشر الذى يقول فيها «ما تؤديه العرائس هو أهم ألف مرة مما تنطق به».

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

عُرِفَتْ القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم فى أفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جدًّا من معاهد العلم فى تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادته جدارة فى المائة السنة الأخيرة.

ويأتى تفوق القاهرة فى مضمار نشر العلم نتيجة لإنشاء الأزهر فى السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وأفريقية، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل فى قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملًا فهو جوهر

الكـاتب الصقلي[1]، وينـطق المصـريـون الجيم في اسمـه جـامدة ولا يعـطشونها كـما تعـطش في كثـير من البـلاد العربية.

وقد اتسع الأزهـر (جامـع الأزهر) كثيـرًا على مـدى الأعـوام والقرون، أمـا الجامـع فيحتوى عـلى تعـويـذة عجيبـة، وهي عبارة عن رسم لـطيور مـوجودة في أعـلى أعمدة ثلاثـة من أعمدتـه، وذلك من أجـل منع الـطيور الحيـة من اتخاذ أعشـاش لها داخـل مبـانيـه. وكـما بنيت كليـات أكسفورد أصـلًا حول الكنـائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة إنشاء بيوت مخصصـة لمعيشة الـطلبة إلا فيـما بعد) فكذلـك كان المسجـد هو النـواة التي امتد الأزهـر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبـح لا شيء يحول دون زقزقة العصـافير أن تنـازع انصراف الأسـاتذة إلى إلقـاء محاضـراتهم. ولكن على حـين أن أكسفورد - التي قامت بعد الأزهر - أخذت تتقـدم وتتطور سـريعًا بعـد

---

(١) معروف في كتب التاريخ العربيـة بجوهـر القائـد الصقلي لا بجـوهر الكـاتب. (المترجم) فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين.

القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكدًا، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة، ولا يزال العلم فى الأزهر يروع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذًا مبجّلا مهيبًا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة فى الجامع الكبير. ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفيًا فهى مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامى.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا) – رواق المجاورين (مكة والمدينة) – رواق أبناء السودان ودارفور – رواق الشوام – رواق أبناء جاوة – رواق أبناء الأفغان – رواق المغاربة (شمال إفريقية) – رواق أبناء الصومال – رواق

الاتـراك - رواق الأكـراد - رواق أبنـاء الهنـد - رواق أبناء بغداد - رواق أبناء النوبة - رواق أبناء الـواحات والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يفد منهم أحد لتمسكهم بالمذهب الشيعى، فالأزهر وإن نشـأ على مـذهب الشيعة قـد تحـول إلى مـذهب أهـل السنـة بعـد زوال حكم الفـاطميين. حقـا هيهات أن نجـد فى الماضى أو الحـاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية فى المسيحيـة) تضم مثل هـذا الحشد الهـائل من الـطلبـة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر - حتى فى أيـام تخلفـه - فعـظيم، لأن أئمـة الـدين فى المجتمعات الإسلامية المختلفة فى أنحاء العالم اتخذوه منارًا وعـدوه ينبـوعًـا لأصـول الـدين قبـل تفـرق المـذاهب (كالأرثوذكسية فى المسيحية).

وهنـاك مرحلتـان رئيسيتان مـر بها الأزهـر فى محاولـة تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده فى العقـد الأخـير من القـرن التـاسع عشـر، إذ جعـل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة، وأضاف بمجهوداتـه كليات

جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة - كل واحد منهم في موطنه - لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهدًا تقدميًّا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان إن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الأزهر، كما سمح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي

مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان فى مدينة نصر، وهى ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كما ستخصص ١٥٠ فداناً أخرى فى القبة لإنشاء كلية إسلامية للبنات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو - من أحد الجوانب - نتيجة تحد من نظام تعليمى آخر فى مصر، نظام علمانى صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقاً لمنهج سلفى لم يتبدل إلا قليلا منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الإفرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسى، ولم يكن بين التيارين إلا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الإطلاق.

وترجع هذه الثنائية فى نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التى أنشأها محمد على، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد

بهذه المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمى بين ابتدائى وثانوى.. هو الآن اجبارى وبالمجان. ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هى أكبر من مثيلتها فى بريطانيا اليوم، ولكن هذا لا يعنى أن المستوى يرتفع إلى نفس الدرجة أبدًا، ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة فى المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفًا من الطالبات، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا فى جامعتين فى القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التى حل اسمها محل جامعة فؤاد، وجامعة عين شمس) ٧٢,٩١٣ طالبا منهم ١٦ ألف طالبة أو أكثر قليلاً، وهذه الأرقام وإن بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن فى مجال التعليم كاملاً، إلا أنه يبين فى نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء اللاتى يقمن بدورهن المتزايد الفعال فى الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هى حكمت أبو زيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التى كان من

أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل فى جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزًا تعليميًّا لإفريقية، فإنها - فضلاً عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الافريقيين منحًا دراسية فى معاهدها - تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية «برنامج صوت أفريقية» يوميًّا باللغات الأمهرية والسواحلية، واللنجالا والسيسوتو، والنيانجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيرًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.

الفصل الرابع عشر

القاهرة.. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيًّا، فليست القاهرة فرعونية فى شىء ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير، ويضم أفخر مجموعة من الآثار المصرية فى العالم. ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الإنسان معيشة المدن. ويمر سيل لا ينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثاث توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثانى وسيتى الأول (وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن

تضفى عليهم جلالة الملوك، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدرة ٢٥ قرشًا - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليًا). ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠,٠٠٠ زائر سنويًا للبلاد. ولكن الأسماء التى أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشأه أوجست ماريبيت الفرنسي وصمم مبانيه نارسل بورجنون عالم المصريات، والدراسات التى بدأت بأوروبيين أمثال شامبليون وماريبيت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة إلا أخيرًا..

وإذا كانت القاهرة مدينة إسلامية وليست فرعونية، فإنها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية. وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال - حتى للسائح الخالى البال - إلى قربها من الجيزة وسقارة. وهناك عرض بالصوت والضوء عند الأهرام يقام كل ليلة يسترجع ألوف السنين التى سبقت البطالسة. ويستقبل أبو الهول - وقد تجلى بعد إزالة الرمال من حوله - اشعة

الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المـدينة. ويمكنـك أن تشـاهـد - وأنت واقف عـلى جبـل المقطم عند الضاحية الجـديدة - سلسلة من الأهـرامات تمتـد جنـوبـًا حتى نهايـة البصـر. وإذا وصلت إلى محـطة القاهرة قادمًا من الإسكنـدرية أو بـور سعيد فستشـاهد خارجها تمثـالاً ضخمًا لـرمسيس الثانى - الـذى اكتشف قريبًا فى سقارة - واقفًا وحيـدًا مديـدًا تخرج من أقـدامه نافورات من المياه

ولكن التـأثير الـواضح للفـراعنة عـلى القاهـرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المـطاعم أو ترسم على بعض الأقمشة.

ولعـلى أكون مخـطئًا فى ذلـك. فهنـاك تـأثـير إيجـابى فرعونى واضح، ذلك أن الشـابات يضعن الكحـل حول عيونهن التى هى واسعة أصـلاً. كما أنهن - بحيلة فنيـة - يتـوصلن إلى إرسال شعـورهن السوداء عـلى نمط شعـر نـوفرت الجـالسـة عـلى الـدوام بجـوار زوجهـا الأمـير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الأرضى فى المتحف.

فهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٢٥٢٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٩٩٨-٣	ISBN

١ / ٨٤ / ٣١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)